الفصل الثالث

المدارس الاجتماعية فى إنجلترا

ظهرت فى إنجلترا مدارس اجتماعية كثيرة تعالج شئون الحياة الاجتماعية، بيد أن هذه المدارس لم تنجح فى تكوين وحدة منهجية كما حدث بصدد الدراسات الاجتماعية فى فرنسا حيث نجحت مدرسة دور كايم فى تكتيل جهود جمهرة العلماء نحو وحدة الفكر والمنهج ونحت ببحوثهم نحو التكامل . وأشهر المدارس الاجتماعية الإنجليزية ما يأتى :

أولا ـ المدرسة الوضعية

تأثرت طائفة كبيرة من علماء الإنجليز بالفلسفة الوضعية الزاحفة من فرنسا ؛ وهى الفلسفة التى نادى بها أوجست كونت . وقد أخلصت هذه الطائفة للفيلسوف الفرنسى إلى حد أنها كانت تقدم له صادق المعونة فى أخريات أيامه . وكان أشهر رجال هذه الطائفة « جون ستيوارت ميل وبكل وجروجروت » المؤرخ الشهير «Mill; Buckle; Grote» .

لم يعمل هؤلاء على تقدم الدراسات الاجتماعية فى إنجلترا . وذلك لأنهم اهتموا بالمسائل المتصلة بالسياسة الوضعية وعبادة الإنسانية وأهملوا النواحى العلمية والمنهجية فى فلسفته الاجتماعية . وهذا هو السر فى أنهم لم ينجحوا فى حل المشاكل التى كانت تواجه المجتمعات فى زمانهم، وفضلا عن ذلك فقد ألبوا عليهم مختلف الهيئات والأحزاب لاسيما وأنهم عاصروا حركات وانقلابات كثيرة . فقد قامت خلافات واسعة النطاق بين الطوائف الدينية ؛ وتصادم عنيف بين العمال وأصحاب رؤوس الأموال ، وبين الاشتراكيين والرأسماليين ، وبين أنصار الحركة النسائية والرجعيين [1] . فلم ينجح أنصار الوضعية أن يقفوا موقفاً حاسماً بصدد هذه المشاكل وأغرقوا فى اتجاههم الدينى ، واهتموا بنشر الديانة الوضعية وأصدروا فى هذا الصدد مجلة اجتماعية أطلقوا عليها « المجلة الوضعية The Positivist Review »

(1) J. Mc Gee, The History of Organised Positivism in England (1931); p. 229

واستمرت هذه الصحيفة فى الظهور حتى ١٩٢٤ ثم غيروا اسمها وأطلقوا عليها « مجلة الإنسانية «The Humanity» وكان أشهر محرريها « فردريك هاريسون ، باترك جدز ، آرثر رسل ، هوبسن ، كون ، إدوارد بيسلى ، وبنيامين كد »[1] .

وكان أقوى رسل الوضعية فى إنجلترا « ميل وبكل » تأثر الأول بالمنهج الوضعى فى دراساته المنطقية واهتم بالناحية الديناميكية . وذهب إلى أن وظيفة علم الاجتماع هى الكشف عن القوانين التى تؤثر فى انتقال حالة اجتماعية إلى أخرى لاحقة بها . وأن أفضل المناهج التى تستخدم بنجاح فى هذا العلم هى مناهج العلوم الطبيعية وأفضلها على وجه الخصوص هو المنهج التاريخى[2] . وبالرغم من أنه لم يعترف باستقلال علم الاجتماع فى بحوثه الأولى ، غير أنه عاد ، تحت تأثير فلسفة صديقه كونت ، واعترف باستقلاله وأهليته فى تزعم العلوم الإنسانية كلها . وهذا التطور واضح تماماً إذا قارنا بين ما جاء فى كتاباته الأولى وبين ما جاء فى مراسلاته بينه وبين « أوجست كونت » إذ يبدو أنه كان فى شباب تفكيره من المتحمسين « للمدرسة النفسية » فقد قرر أنه من الممكن إرجاع قوانين الحياة الاجتماعية إلى قوانين علم النفس الفردى ، وأنه من الممكن تفسير قواعد الاجتماع وظواهره فى ضوء مبادئ علم النفس والقدرات الكامنة فى الطبيعة الإنسانية فالأفراد فى المجتمع ليس لهم خواص ذاتية تلك التى يمكن استخلاصها من القوانين الطبيعية التى يخضعون لها بوصفهم أفراداً ، واجتماعهم على أية صورة لا يسبغ عليهم صفات مضافة أو خواص ذاتية ناشئة تلقائياً فى حالة الاجتماع . فما ينشأ بينهم من ظواهر أو يستحدث من نظم يخضع لقوانين لا بأس من أن نسميها قوانين اجتماعية ، بيد أنها لا يمكن أن تكون شيئاً آخر غير الأفعال والانفعالات والمؤثرات المتبادلة بين الأفراد . فالأفراد هم أفراد مهما كانت حالة الاجتماع التى تضمهم . والعلاقات التى تنشأ بينهم فى هذه الحالة تخضع للقوانين ذاتها التى تخضع لها الأفعال والانفعالات التى تصدر عن طبائعهم النفسية الفردية .

وغنى عن البيان أن هذا التصور لطبيعة الظواهر الاجتماعية والقوانين التى تخضع لها ينطوى على إنكار صريح لعلم الاجتماع وأهليته بالاستقلال . غير أن « ميل » عاد وخفف من تطرفه واتجه حثيثاً نحو المعسكر الذى يؤيد علم الاجتماع وذلك تحت تأثير

(1) G. Bryson; Early English Positivists and the Riligion of Humanity (Amer. Soc. Review, Juin 1936 — I, p. 343 Sqq).

(2) Gurvitch; Moore — Twentieth Century Sociology pp. 368—569.

الفلسفة الوضعية الزاحفة من فرنسا وتحت تأثير صداقته الشخصية بأوجست كونت . وهذا التطور فى تفكيره ملحوظ بصفة خاصة فى المراسلات المتبادلة بينه وبين كونت : وقد نشرت هذه الرسائل فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر . وهى تدلنا على مبلغ عناية المفكرين الإنجليز بالتيارات الفكرية التى أثيرت حول علم الاجتماع وموضوعه ومنهجه وأسس الدراسة التى يقوم عليها . ولا شك أن هذه المساجلات النظرية أفادت ميدان العلم ولفتت أنظار العلماء من مؤيدين ومعارضين على السواء , ووضعت « جون استيوارت ميل » فى مكان مرموق على الخط الفكرى الذى يربط بين كوندرسيه وكونت مارًّا بدوركايم وسبنسر وتارد . . .

أما المفكر الثانى وهو (Buckle) فتأثر بنظريات كونت فى فلسفة التاريخ . هذا ، إلى أنه درس بعض ظواهر المجتمع دراسة وضعية وخاصة ظاهرة الزواج وكشف فى دراساته عن مبلغ تأثر هذه الظاهرة بالعوامل الطبيعية والاقتصادية والاجتماعية والدينية ودرجة التكامل الاجتماعى وقوة الشخصية الفردية وانتشار الثقافة وما إلى ذلك من العوامل التى اعتبرها قوى فعالة مؤثرة فى تكييف ظاهرة الزواج . وضغط بصفة خاصة على العامل الثقافى وعلى ضرورة معرفة القوانين التى تحكم الحياة الاجتماعية ، فإن هذه المعرفة ضرورية لإسعاد الأفراد .

هذا ، ولم يكن للمدرسة الوضعية فى مجموعها أثر واسع النطاق فى إنجلترا إذا قيست بمدارس كبيرة مثل مدرسة هربرت سبنسر أو المدرسة الأنثربولوجية والنفسية وما إليها .

ثانياً ـ مدرسة هربرت سبنسر

ولد هربرت سبنسر فى ٢٧ أبريل عام ١٨٢٠ وتوفى فى ديسمبر عام ١٩٠٣ ؛ بدأ حياته مدرسا ثم اشتغل مهندسا . ولم يلبث أن ترك الوظيفة واشتغل بالأدب والسياسة وشئون الاجتماع . كتب مؤلفات ضخمة تدل على سعة العرض ودقة التحليل وعمق الفكر وأصالته[1] . وكانت مؤلفاته مرآة صادقة للفكرة التى تشبعت بها نفسه وتبلورت فى تفكيره

(1) First Principles; Principles of Biology . أشهر مؤلفات سبنسر
Principles of Psychology; Principles of Sociology; Study of Sociology; Descriptive Sociology; The Data of Ethics; Social Statics; Man versus the State.

وهى « فكرة النشوء والارتقاء » فحاول تطبيقها على الكائنات الحية فى ميدان علم الأحياء ، وعلى الإنسان فى ميدان علم النفس والأخلاق ، وعلى المجتمع فى ميدان علم الاجتماع والسياسة .

ولا يسعنى فى هذه الفقرة أن أعرض آراء سبنسر الاجتماعية بالتفصيل ، فقد خصصت لها فصلا مستقلا فى كتابى « تاريخ التفكير الاجتماعى » بيد أن الرجوع إلى دراسة الموضوع يتطلب منى ولو مجرد الإشارة إلى أهم مقومات مذهبه .

لاشك أن سبنسر أحد دعائم الحركة الاجتماعية العلمية فى القرن التاسع عشر وبالرغم من اتفاقه مع أوجست كونت فى بعض الحقائق ، غير أنه لا يعترف بأن كونت أسبق منه وصولا إليها . فقد نشر أول بحث له فى الفلسفة الاجتماعية بعنوان « الاستقرار الاجتماعى «Social statics» من قبل أن يعرف تفصيلات تستحق الذكر عن فلسفة أوجست كونت . ولذلك فإن مظاهر الاتفاق بينهما جاءت عرضاً . هذا ، إلى أنهما مختلفان إلى حد كبير فى الاتجاه الرئيسى الذى التزمه كل منهما فى دراسة شئون الاجتماع . ومع ذلك يقرر بعض النقاد أن القارئ لكتاب سبنسر « مبادئ علم الاجتماع » يدرك تماماً أنه مستمد فى روحه وليس فى تفاصيله من كتاب أوجست كونت «Opuscules» فلا شك أن « كونت » رسم الإطار العام ، وأن « سبنسر » ملأ هذا الإطار [1] .

ولما كانت فلسفة سبنسر الاجتماعية مرتكزة على المبادئ العامة لفلسفته الطبيعية بالإجمال ، فيجدر الإشارة إلى أهم هذه المبادئ التى يلخصها فى القضايا الآتية :

١ — العالم فى تغير مستمر . فكل ما يقع فيه من تغير سواء كان كبيراً أم صغيراً ، طبيعياً أم عقلياً أم اجتماعياً ، فإنما يرد إلى تفاعلين هما «النشوء والارتقاء» أو بعبارة أخرى السكون والفساد .

٢ — القوة ثابتة لا تتلاشى ولكنها تتغير على الدوام من صورة إلى أخرى .

٣ — المادة لا تنعدم ولا تتجدد ولكنها تتشكل .

٤ — الحركة دائمة ولكنها تسير فى أقل الجهات مقاومة .

---

(1) Eugène De Roberty; Auguste Comte et Herbert Spencer (Paris 1904).

Comte; Opuscules inédits publis par la Revue Occidentale depuis 1882.

وظهر لسبنسر فوق ما تقدم أن كل الأفعال فى مجموعها تجرى وفق قانون طبيعى واحد مهما ظهر لنا أن كل فعل على حدة خاضع لقانون خاص . فإن التغيرات المختلفة ليست فى حقيقة الأمر منفصلة بذاتها ولكنها مرتبطة ارتباطاً وثيقاً وفق قانون « الاتصال النسبى » الذى يجمع ويؤلف بينها .

وبعد أن يشرح سبنسر مبادئ فلسفته يطبقها على الحياة البيولوجية وينتهى إلى تقرير القضايا الآتية :

إن فى الحياة ميلا إلى التفرد ؛ والتفرد هو غاية كل ارتقاء ، وكل ارتقاء إنما ينطوى على الانتقال من المتماثل إلى المتباين أو من التجانس إلى اللامتجانس . ويقرر كذلك أن « التخصص هو غاية كل تطور وارتقاء فى الموجودات » وهذا القانون بحسب تحليله قائم على دعامتين :

١ — كلما ازداد المركب الحيوى تعقيداً ازداد اختصاصاً وتفرداً .

٢ — كلما ازدادت الأعضاء تفرداً واختصاصاً ازدادت استقلالا .

وينتقل سبنسر بهذه الحقائق من ميدان الحياة البيولوجية إلى ميدان الحياة الاجتماعية : فيحاول تطبيقها على هذه الحياة مشبهاً إياها بالحياة البيولوجية . وبعد أن يشرح كيفية نشأة الحياة الاجتماعية وتطورها ووضوح وظائفها وازدياد ظاهرة التفرد والتخصص حتى وصلت فى العصر الحاضر إلى أدق مظاهرها ، يقول إن نظريتى فى النشوء والارتقاء أو التطور تقوم على أساس فكرتين هما :

١ — التباين « Differenciation » ويقصد بذلك الانتقال من المتجانس «Homogeneity» إلى اللامتجانس «Heterogeneity » وقد قرر فى هذا الصدد أن فى الحياة ميلا إلى التفرد والتخصص . وقد أصبح هذا التخصص هو المطلب الأول فى شئون الحياة ، وهو الغاية القصوى التى يصل إليها الكائن فى ارتقائه ، وأن هذا الارتقاء والتطور كان مصحوباً بالانتقال من التعميم غير المحدود إلى التخصص المحدود ، ومن التخصص المحدود ، ومن المتماثل إلى التباين .

٢ — التكامل «Integration» وهذه الظاهرة تسير جنباً إلى جنب مع ظاهرة التباين . . بمعنى أن التفرد أو التخصص لا يؤدى إلى الاستقلال والاكتفاء الذاتى ؛

ولكنه يؤدى إلى التضامن والتماسك واعتماد الأجزاء والوظائف بعضها على البعض الآخر . فلا تستطيع إحداها أن تغنى بنفسهاعن الأخرى . وذلك طبقاً لمبدأ توزيع العمل البيولوجى والفيزيولوجى بالنسبة للمركب الحيوى ؛ وطبقاً لمبدأ التضامن والتكامل الاجتماعى بالنسبة لشئون الحياة الاجتماعية .

والمجتمع فى نظر سبنسر جزء من النظام الطبيعى للكون . وعلم الاجتماع هو محاولة لمعرفة نشأة المجتمع وتركيبه وعناصره وهيئاته ومراحل نموه وتطوره وما إلى ذلك من المظاهر التى تخلقها العوامل الطبيعية والنفسية والحيوية ؛ وهى عوامل تعمل متضافرة فى عملية تطورية موحدة . فالتطور الاجتماعى فى نظره ليس إلا عملية تطورية عضوية يسميها « التطور فوق العضوى » «Super Organic evolution» .

وهذا النوع من التطور يوجد بصورة أقل وضوحاً فى بعض المجتمعات الحيوانية مثل تجمعات النمل والنحل . غير أن هذه التجمعات ليست معقدة التعقيد الملحوظ فى المجتمعات البشرية وذلك لتفاعل العلاقات الإنسانية وتشابك مصالح الأفراد ورغباتهم . فالاجتماع الإنسانى إذن هو أرقى صورة للتطور فوق العضوى .

وفى ضوء ما تقدم ؛ المجتمع عبارة عن كائن عضوى أو مركب عضوى «Organism» يشبه الجسم الحى ؛ وعناصر المجتمع وهيئاته تشبه نظائرها فى الجسم الحى . ويعقد « سبنسر » مماثلة بين المجتمع وبين الجسم الحى من ناحية التركيب الداخلى . بيد أنه لايفوته أن يقرر فروقاً ذات بال بين التركيب العضوى فى الكائن الحى وبينه فى المجتمع أهمها أن عناصر الكائن الحى تكون كلا متماسكاً متحداً بصفة مباشرة . بينما نجد أن العوامل التى تؤدى إلى الوحدة فى المجتمع عوامل خارجة عن التركيب العضوى فى الفرد . ومن هذه العوامل اللغة والعواطف والانفعالات . والأفكار والمعتقدات والعرف والتقاليد والقانون وما إلى ذلك من الأمور . هذا إلى أن الجهاز العصبى الذى يمثله العقل يوجد متحيزاً فى الكائن الحى ويشغل جزءاً صغيراً من تركيبه بينما يوجد فى المركب الجمعى موزعاً بين الأفراد ؛ ولكل إنسان الحق فى المساهمة بأحكامه الصائبة فى توجيه المجتمع .

والمجتمع شأنه شأن الفرد من حيث النشأة والتكوين : ينشأ فى صورة بسيطة ضيقة النطاق ثم يأخذ حجمه فى النمو وعدد أفراده فى التكاثر . وهذا النمو يتبعه تميز فى الأعضاء والهيئات وتعقد فى التركيب . فهو فى هذا الصدد كالكائن الحى ينتقل من التجانس

اللامحدود إلى اللاتجانس (التباين) المحدود . أى أنه ينتقل من فوضى الشيوع إلى نظام التخصص وتقسيم العمل . غير أن نمو المجتمع لا يمكن أن يكون عن طريق التزايد البسيط بل لابد من اندماج هيئاته واتحاد بعض المجتمعات الصغيرة مع بعضها وتفاعل اتجاهاتها . أى أن هذا النمو يتبعه تعقيد فى بنية المجتمع وتركيبه ، وكلما ازداد تعقيداً وتركيباً ، ازدادت أهمية التمييز بين هيئاته وطبقاته للوقوف على طبيعتها والوظائف التى تؤديها .

ومتى قام المجتمع واستقرت إلى حد ما الحياة الاجتماعية ؛ تأخذ الظواهر والنظم الاجتماعية فى الارتقاء والتطور وتخضع بدورها للانتقال من حالة التجانس إلى مرحلة التباين والتخصص . وهى فى هذا الصدد تتأثر بنوعين من العوامل وهى :

١ — العوامل الداخلية وهى العوامل التى تمثل فى نظره الناحية الفردية وهى أمور تتعلق بالتكوين الطبيعى الوجدانى العقلى للأفراد الذين يكونون المجتمع . لأن سبنسر يرى أن الظواهر الاجتماعية تنشأ متأثرة بهذه الخواص الفردية بمعنى أن الأفراد يشكلون ظواهر المجتمع وفق الخواص المشار إليها .

٢ — العوامل الخارجية وهى العوامل التى تمثل فى نظره أثر البيئة ، فالبيئة الجغرافية وظروف المجتمع الطبيعية والمناخية من الأمور التى تؤثر بصفة مباشرة على الأفراد ، وبالتالى على الظواهر الاجتماعية التى لا تعدو أن تكون مجرد نتيجة لأوجه نشاط الأفراد .

وبعد تحليل طبيعة المجتمع على النحو الذى شرحناه ؛ يقرر سبنسر أن المجتمع كالفرد ؛ يعتوره التطور ويخضع لقوانينه التى لا ترحم : فى النشوء والارتقاء ثم الانحلال . فنمو الوحدة السياسية من الأسرة والقبيلة فالمدينة والدولة ثم الهيئة ثم الأمم ؛ ونمو الوحدة الاقتصادية من الصناعة المنزلية ونظام الحرف والطوائف فالثورة الصناعية الآلية ثم الثورة الكهربائية . كل هذه الأمور أدلة لا يرقى إليها الشك على مبلغ ما قطعته الحياة الاجتماعية من ارتقاء وتطور . وكان هذا التطور (ولا يزال) مصحوباً بالظاهرة الملازمة له وهى ظاهرة « تنافر القوى وتنوع الوظائف وتفرع الاختصاصات » إذ نلمس أن العمل الاجتماعى قد ازداد تنوعاً ؛ والمهن والصناعات ازدادت تفرعاً ؛ وخضعت مظاهر الإنتاج الأخرى لهذه المبادئ . وأكثر من ذلك نجد تنوعاً بين خصائص الريف والمدن ؛ وبين دولة وأخرى ؛ وبين وحدة إقليمية وأخرى . ونجد تطبيقات صحيحة لهذه المبادئ فى كل ناحية من نواحى الحياة الاجتماعية : فى السياسة والاقتصاد والدين والأخلاق والعلم والفن .

ويستلفت نظرنا بجانب ذلك أن هناك مجتمعات تضعف بعد قوة ؛ وتشيخ بعد شباب ؛ ومدناً تنحل وتتقوض ؛ ودولا ينزل بها الضيم والهوان بعد المجد والسلطان ؛ وأخرى تقوم من جديد وترسى قواعدها وتأخذ بأسباب النشوء والارتقاء . فهناك إذن خلق متجدد فى الحياة الإنسانية . وهذه كلها حقائق تنهض دليلا على صحة ما يذهب إليه من أن المجتمع الإنسانى يخضع لقانون التطور بشطريه : النشوء والارتقاء من ناحية ؛ ثم الانحلال من ناحية أخرى .

وفى ضوء الحقائق التى أسلفناها يمكننا أن نحدد وجوه التشابه والتباين بين الكائن والمجتمع الحى فيما يأتى :

(ا) وجوه التشابه :

١ — يتفق المجتمع والكائن الحى فى النمو المتزايد المحلوظ الذى يطرأ عليهما طوال وجودهما . وهذه الظاهرة تميزهما تماماً عن المركبات اللاعضوية «Inorganic» .

٢ — كلما ازداد حجمها ؛ ازداد تعقيداً فى البنيان والتركيب .

٣ — كلما ازداد بنيانهما تركيباً وتعقيداً ؛ ازدادت وظائفهما تبايناً وتعقيداً .

٤ — إن التطور فى كليهما لا يحدث مجرد تغيرات وتحولات ؛ ولكن هذه التغيرات مرتبط بعضها ببعض ويفسر بعضها البعض الآخر .

٥ — إن المماثلة بينهما واضحة جداً وتبدو أكثر وضوحاً إذا اعتبرنا كل مركب عضوى مجتمعا «Every Organism is a Society» .

٦ — إن حياة التجمع فى كليهما يمكن أن تتلاشى ولكن الخلايا يمكن أن تستمر فى الحياة مدة من الزمن .

(ب) وجوه الاختلاف :

تتلخص وجوه الاختلاف بين المجتمع والكائن الحى فيما يأتى :

١ — إن جزئيات المركب الحيوى تكون كلا متماسكاً محسوساً ؛ والخلايا الحية مرتبط بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً ؛ أما فى المركب الاجتماعى فإن عناصره منفصلة ومتمايزة ولا تكون هذا الكل المحسوس ؛ وخلاياه الحية حرة طليقة وموزعة ومشتتة .

٢ ــ نجد أن التباين فى المركب الحيوى قد وصل إلى أن أصبح بعض المراكز الحية قاعدة للتفكير والإحساس وبعضها عديم الحساسية ؛ بينما لا نجد هذا التباين فى جسم المجتمع فليس ثمة عقل جمعى أو شعور جمعى مستقل عن الأفراد الذين يكونون المجتمع .

٣ ــ ونستنتج من النقطة السابقة أن الخلايا فى الجسم الحى تعمل لخير الكل ؛ أما فى المجتمع فإن الكل يعمل لصالح عناصره .

هذا ، ويمكننا أن نجمل أهم الدعائم التى ترتكز عليها فلسفة هربرت سبنسر الاجتماعية فى القضايا الآتية[1] :

١ ــ المجتمعات مركبات عضوية حية ؛ أو تجمعات فوق العضوية .

«Superorganic Aggregates»

٢ ــ يوجد بين المجتمعات والبيئات التى تشغلها ، توازن فى القوى . فهناك توازن بين مجتمع وآخر ؛ وبين جماعة وأخرى فى نطاق المجتمع الواحد ، ويوجد توازن بين مختلف الطبقات الاجتماعية كذلك .

٣ ــ ويأخذ هذا التوازن صورة تنازع البقاء بين المجتمعات . ومن ثم يصبح الصراع نشاطا مألوفا فى الحياة الاجتماعية .

٤ ــ وفى غمرة هذا الصراع للتنازع على البقاء ينشأ الخوف من الأحياء والأموات على السواء ، وقد كان الخوف من الأحياء (وهو شىء طبيعى ناتج عن الصراع) سبباً فى قيام التنظيم السياسى ؛ كما كان الخوف من الموتى عاملا أصيلا فى قيام النظام الدينى .

٥ ــ وتحت تأثير التنظيم السياسى والدينى ؛ فإن حالة الصراع المألوفة أصبحت نزعة حربية . وقد شكلت هذه النزعة العادات ومظاهر السلوك والتنظيم الاجتماعى وأصبحت صفة لازمة للتجمعات الإنسانية الأولى .

٦ ــ وساعدت النزعة الحربية على سرعة اندماج الوحدات الاجتماعية الصغيرة فى وحدات أكبر وأوسع نطاقاً . وهكذا حتى قامت المجتمعات الكبيرة . أى أن هذه النزعة حققت مظهراً من مظاهر التكامل الاجتماعى . وقد وسعت هذه العملية نطاق الحياة الاجتماعية واستطاعت الشعوب الكبيرة فى زمن السلم أن تلجأ إلى التصنيع .

---

(1) Barnes; An Introd. to the History of Soc. p. 114. Sqq.

٧ – وقد شكلت حياة السلم والصناعة ؛ والأخلاق ومظاهر السلوك والتنظيم الاجتماعى تبعاً لما تقتضيه هذه الحياة من التعاون ومظاهر الإخاء والمشاركات الوجدانية والتحرر وزيادة المعارف الإنسانية .

٨ – ومن ثم أدت هذه الحياة إلى الحرية والتعاون الاختيارى وأدت إلى مرونة التنظيم الاجتماعى وسيولة العلاقات الاجتماعية بين الأفراد . وساعدت على تحقيق مقومات الشخصية الاجتماعية للفرد ؛ بينما أدت الحياة الحربية إلى العنف والكبت والتحقير من شأن الفرد وإخضاعه عنوة واقتداراً .

٩ - ويتوقف التحول من الحالة الحربية إلى الحالة الصناعية على مبلغ التوازن فى القوى بين مجتمع ما والمجتمعات المصاقبة له . وبين المجتمعات التى تنحدر من جنس معين وبين أخرى مخالفة لها فى الجنس ، وبين المجتمع والظروف الطبيعية التى يخضع لها .

١٠ – هذا ، ولا يمكن أن نعزز الاتجاه نحو التصنيع السلمى إلا إذا حققنا أولا توازن القوى بين الأمم وبين مختلف الأجناس .

هذا ؛ وبجانب النظريات العامة التى أشرت إليها ؛ وضع سبنسر نظريات فرعية كثيرة تعتبر تطبيقات مباشرة لمبادئه الفلسفية العامة . فله نظرية فى تصنيف المجتمعات من حيث التركيب المورفولوجى ومن حيث الوظيفة الاجتماعية . وله نظرية فى طبيعة الحكومة ووظائفها تعتبر صدى لنزعته الفردية وإيمانه بقوانين تنازع البقاء وبقاء الأصلح ؛ وله نظريات فى طبيعة الحياة الأخلاقية ؛ وفى شئون الاقتصاد ، وفى الحضارة ومبلغ أثرها فى ظاهرة التناسل . وتعتبر هذه النظريات تطبيقات لازمة لآرائه البيولوجية والمادية والفردية ؛ وقد عرضتها بالتفصيل فى كتابى تاريخ التفكير الاجتماعى . فأحيل القارئ للرجوع إلى هذا الكتاب بدلا من عرضها فى هذا المكان .

هذا هو الإطار العام لفلسفة سبنسر الاجتماعية . فكان من الطبيعى إذن ألا يمر مفكر مثله بدون أن يؤثر تأثيراً عميقاً فى تفكير معاصريه . غير أن الأثر الذى تركه سبنسر فى إنجلترا لا يعد شيئاً مذكوراً بجانب الأثر الذى تركه دوركايم فى المجتمع الفرنسى ؛ ولعل السر فى ذلك يرجع إلى إسراف « سبنسر » فى اتجاهه البيولوجى وإيمانه العميق بفكرة التطور والنشوء والارتقاء . ومع أن هذه التصورات وما إليها شغلت الأذهان فترة طويلة وأثارت مساجلات لا حصر لها ؛ غير أنها سرعان ما تلاشت عند قيام الحرب العالمية

الأولى . وذلك لانشغال الفلاسفة وعلماء الاجتماع فى موضوعات أجدى وأنفع وأقرب إلى طبيعة الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التى قامت أثناء وبعد الحرب . ونستطيع أن نذكر من بين علماء الإنجليز الذين تأثروا بفلسفة سبنسر « سزرلاند وهوبهوس وجنزبرج وهويلر «Sutherland : Hobhouse : Ginsberg : Wheeler» غير أن هؤلاء لا يعتبرون تلاميذ مباشرين أو أتباعاً مخلصين لجوهر نظريات أستاذهم ، فقد دلت بحوثهم المتأخرة على تخلصهم من التأثر بالمدرسة البيولوجية وخلطوا فى دراساتهم بين مختلف الاتجاهات : البيولوجية والنفسية والثقافية وما إليها .

نقد الاتجاه البيولوجى

كانت النظريات البيولوجية بصفة عامة والفلسفة « السبنسرية » بصفة خاصة بالرغم من قوتها وسعة انتشارها وخطر المدافعين عنها هدفاً لانتقادات كثيرة من عدة وجوه أهمها .

(أ) نقد النظرية بالإجمال :

١ — تلجأ هذه النظرية إلى المقارنة والتمثيل وتشبيه المجتمع بالكائن الحى . وهذه الطريقة لا تعتبر طريقة علمية إلا إذا عقدت بين ظواهر متماثلة فى طبيعتها أما إذا عقدت بين طبائع مختلفة فتكون طريقة فاسدة ولا تؤدى إلى تحقيق علمى سليم . ولاشك أن الطبيعة الحيوية تختلف فى أسسها ومقوماتها ووظائفها عن الطبيعة الاجتماعية . لأن الأفراد فى الحياة الاجتماعية لم يجتمعوا ليأكلوا ويشربوا ولكن لينظموا شئونهم اجتماعيا ويصطلحوا على ما يحقق الخير المشترك .

٢ — لم تميز هذه النظرية بين عالمى الحيوان والإنسان . فمبدأ بقاء الأصلح لا يمكن أن يسرى على الإنسان وهو يحيا حياة اجتماعية مثلما يمكن تطبيقه على الحيوانات التى تحيا حياة انفرادية . لأن الصلاحية ومبلغ تأصلها فى الأفراد إنما ترجع إلى المجتمع الذى يجعل الفرد معه فى مدارج الارتقاء .

٣ — ليس بصحيح ما تدعيه هذه النظرية من أن المجتمع وسط تتحقق فيه ضروريات الحياة الفردية فحسب ، وأن الإنسان إنما ترك الوسط الطبيعى الذى كان يعيش فيه لأنه

أدرك مبلغ ما يعود عليه من النفع فى ظل النظام الاجتماعى . لأن أغراض التجمع الإنسانى أغراض جمعية وليست أغراضاً فردية حيوية . فالمجتمع لم يقم لتحقيق غرائز الفرد وأنانيته ؛ ولكنه نشأ من تقابل مشاعر الأفراد وتفاعل ميولهم ورغباتهم ومن اتفاقهم تلقائياً على إرساء الحياة المشتركة على نظم مستقرة تتمثل فى التنظيم السياسى والاقتصادى والدينى ومظاهر السلوك الجمعى .

٤ — إن المشابهات وأوجه التمثيل التى ذكرها أصحاب هذه النظرية إنما تنصب على المجتمعات الحديثة التى تنوعت فيها الوظائف وتوزعت الجهود وخضعت خضوعاً واضحاً لمبدأ تقسيم العمل . ولذلك وضحت المقارنة وسهل عقد الموازنة بينها وبين الجسم الحى . وفات هؤلاء أن المجتمعات البدائية التى تمثل أقدم مظاهر الحياة الجمعية لم تمايز فيها الوظائف . فقد كانت البطن أو العشيرة هى الوحدة السياسية والاقتصادية والدينية والقضائية . ولذلك أدى بهم الجهل وعدم الوقوف على طبيعة المجتمعات البدائية إلى تقرير المشابهات التى أشرنا إليها . مع أن هذه المشابهات تنصب فقط على المجتمعات الحديثة التى قطعت أشق مراحل التطور الاجتماعى .

(ب) انتقادات خاصة بفلسفة سبنسر :

١ — تنطوى القضايا الكبيرة التى وصل إليها سبنسر على مغالطات لا تخفى . فليس بصحيح أن التطور يسير من البسيط إلى المركب الذى يأخذ فى التنافر ، وليس بصحيح أن التطور والرقى يسيران بالشىء من السذاجة إلى التعقيد فى كل أنحاء الطبيعة . وحتى إذا سلمنا بصدق هذه القضية فى بعض الظواهر ، فلا يمكن أن تكون صادقة وعامة بالنسبة لشئون الكون والحياة الاجتماعية بالإجمال .

٢ — اعتبر « سبنسر » المجتمع كائناً حياً وطبق عليه قوانين علم الحياة . وهذا اتجاه خاطىء . حقاً إن المجتمع يتكون من أفراد ، والأفراد خاضعون لقوانين علم الحياة ، ولكن لا يستتبع ذلك أن نقول إن المجتمع كائن حى كبير يخضع للقوانين نفسها التى يخضع لها الأفراد . فقواعد الحساب وقوانين الطبيعة تنطبق على الإنسان والحيوان والجماد ؛ ولكن ليس معنى ذلك أن هذه الكائنات متشابهة . فليس معنى انطباق قوانين الحياة على الإنسان والمجتمع أنهما متشابهان .

٣ – يستعمل هربرت سبنسر لفظ الانحلال «Dissolution» على أنه عكس التطور «Evolution» والواقع أن استعمال هذا اللفظ ينطوى على خطأ وغموض ، لأن الانحلال يفيد الهدم والتدمير ثم الفناء وهذه الأحوال لا تتفق فى مدلولاتها مع الحركة التى تناقض التكامل أو تتعارض مع التطور . ولذلك فإنه من الأفضل استعمال لفظ التراجع أو « التطور العكسى «Involution» فإن مدلول هذا اللفظ يتمشى تماماً مع منطق نظرية سبنسر ويعبر فى وضوح عما يجرى فى الحياة الاجتماعية . فالتطور الارتقائى أو العكسى إنما يعبران عن فكرة التحول أن التغير التدريجى الذى يسير فى اتجاه ما : إما نحو الارتقاء والتقدم أو نحو النكوص والتراجع . هذا فضلا عن أن استعمال اللفظ المشار إليه يتفق ودقة المصطلحات العلمية ، أما لفظ الانحلال فمجرد عن الصفة العلمية ويبرأ من الدقة المنشودة .

٤ – استعمل سبنسر تشبيهات علم الحياة وقوانينه ليؤيد بها آراءه الاجتماعية والسياسية فى المذهب الفردى وفى الحرية وفى تقييد سلطة الدولة . وشبه الحكومة بالجهاز التنظيمى فى الكائن الحى . ونسى أن قوانين علم الحياة التى استعان بها تقرر أن الكائن الحى كله يخضع بنوع من الضرورة لتوجيه هذا الجهاز التنظيمى ومركزه أعصاب المخ . نسى ذلك عندما طبق النظرية البيولوجية على الحكومة . فقد نادى بالحد من نفوذ هذا الجهاز فى المجتمع بل والقضاء على سلطته بالتدريج وأكثر من ذلك فقد ذهب إلى أن التطور سيؤدى به إلى الانحلال .

٥ – يؤدى منطق نظرية سبنسر فى التطور إلى أن المجتمع يزداد تعقيداً وتركيباً كلما سار فى طريق التطور والارتقاء ، غير أنه يعكس هذه القضية بالنسبة لظاهرة الحكومة . فيرى أن وظائفها آخذة فى التقلص وهى بصدد الانتقال من المركب إلى البسيط ! ! ويجب أن تزداد بساطة وتقلصاً حتى لا تقوم لها قائمة . وفاته أن يدرك أن الحرية لاتنال بزوال الرقابة الحكومية وجميع المعوقات التى تحد من إمكانيات الفرد ولكنها لا تنال ولا تفهم فهماً صحيحاً إلا بضغط السلطات القائمة ضغطاً خفيفاً عادلا على ما يتمتع به الأفراد من حقوق وحريات .

٦ – تقسيم سبنسر للمجتمعات خاطىء وغير جامع . فلو اقتصر على تقسيمها من حيث البساطة والتعقيد لكان أقرب إلى حقائق الأمور . غير أنه لم يوفق فى تقسيمها

من حيث الوظيفة . لأن ما ذكره لاينطبق إلا على بعض المجتمعات التى تمثل العصور الوسطى والحديثة : وعدم عمومية التصنيف تفقده أهميته .

٧ — أشاد سبنسر بفضل الدولة الصناعية وقيمتها ومبلغ استقرارها ورقى أخلاق أفرادها ويبدو أنه لم يرجع إلى التاريخ ولم يتخذ منه هادياً وسنداً . فقد فاته أن جميع الحروب التى قامت فى أوربا وفى غيرها إنما أشعلت وميضها الدول التى تفننت فى أساليب الصناعة الحربية ، وأتقنت اختراع وسائل الدمار . لأن الملاحظ أن الدول الصناعية هى أشد المجتمعات رغبة فى الحرب ، وأقواها نزعة إلى الاستعمار ، وأشدها بأسا فى ميدان الصراع الدولى .

٨ — أيد سبنسر المذهب الفردى فى السياسة والاقتصاد وأسرف فى هذا التأييد : وغفى عن البيان أنه جانب الصواب فى ذلك . وقد انتهز فرصة تورط الحكومة فى بعض الظروف فحمل عليها حملات بليغة وندد بتدخلها فى شئون الاقتصاد وفى حريات الأفراد . هذا ، إلى أن المذهب الفردى لا يؤيد إلا جانباً واحداً من جوانب الحياة وهو الجانب الفردى ويغفل ماعدا ذلك . وقد أثبتت الحوادث والتجارب أن هذا المذهب رجعى لا يساير التطور المعاصر فى شئون الاقتصاد ، هذا فضلا عن أنانيته وجموده .

٩ — وضع سبنسر نظرية خاطئة يفسر بها « ظاهرة التناسل » وبدون الدخول فى تفاصيلها من الناحية البيولوجية ، فهى تنطوى على حقيقة مؤداها أن النوع كلما تقدم فى التطور الفكرى يحد من نسله . غير أن هذه القضية لا تستقيم مع حقائق الأمور ولا تنهض الإحصائيات العالمية دليلا على صحتها فقد أثبتت هذه الإحصائيات أن عدد سكان العالم قد زاد من ٥٤٥ مليون إلى ٢٤٠٠ مليون فى المدة ما بين عامى ١٦٥٠ و ١٩٥٠ أى زاد إلى أربعة أمثاله فى مدة ثلاثة قرون بالرغم مما قطعته الإنسانية من تطور وتقدم فى مختلف مظاهر حياتها السياسية والاقتصادية والعقلية والفنية وما إليها ، بيد أن بعض الأصوات الداعية إلى تحديد النسل قد ارتفعت حديثاً منادية بفكرة سبنسر فى أن التطور الفكرى والارتقاء العقلى سوف يؤدى بالإنسانية إلى الحد من ذراريها ، ومهما يكن من قيمة هذا الرأى فهو لا يزال موضع النظر والاعتبار ، ولكنه لا يستقيم مع الإحصائيات التى أشرنا إليها .

١٠ — وطبق سبنسر نزعته المادية واتجاهه الفردى فى الأخلاق فأشاع الأنانية وحب الذات والأثرة ودعا فى قوة بالغة إلى القضاء على الطبقات المريضة والهرمة والضعيفة ونادى

بتقديمها قرابين على مذبح قوانين تنازع البقاء والصراع التى لا ترحم : وغنى عن البيان أن سبنسر فى هذا الصدد قد تنكر لروحه الفلسفية وخانته عظمة أفكاره ، وأقل ما يوصف به أنه سار بدون وعى مع قوانينه الفلسفية إلى درجة فقد معها التمييز بين الفضيلة والرذيلة ، وبين الخير والشر ، فهو بالرغم من أنه من أشهر عباقرة العالم ، غير أن هذه العبقرية قد اتجهت إلى تأييد الشر الاجتماعى .

١١ — وقع سبنسر فى أخطاء كثيرة تتعلق بالمنهج أهمها :

(ا) بدأ عالماً يعتمد على الملاحظة والتجربة غير أنه أغرق فى فرض الفروض ووضع الاحتمالات التى أدت به إلى فلسفة بدلا من العلم .

(ب) أسرف فى استخدام منطق « التمثيل Analogy » بصدد طبائع مختلفة وأسرف فى عقد المقارنات وتعسف فى التطبيقات التى ساقها فكان من الطبيعى أن يصل إلى نتائج متضاربة . وخانه التوفيق فى كثير مما وصل إليه من قضايا وأحكام .

(ج) بالرغم من استقراءاته الواسعة ، غير أنه لم يكن عنده الصبر الكافى للجمع بين الأمثلة المؤيدة والمعارضة على السواء ولم يناقش ما تنطوى عليه من أسباب التشابه والتناقض ولذلك أصيبت قوانينه بالعمومية وعدم الدقة .

(د) أصدر سبنسر كثيراً من الأحكام التقويمية وهو بصدد دراسة الحقائق دراسة علمية . لأن طبيعة هذه الدراسة تتطلب أحكاماً تقريرية «Jugements de fait» ومن أمثلة هذه الأحكام التقويمية قوله : بلوغ المجتمع غاية الكمال ، بقاء الأصلح ، الكمال السياسى والأخلاقى ، الحكومة شر ، وما إلى ذلك من القضايا والأحكام التقويمية «Jugements de Valeur»

وبالرغم من هذه الانتقادات فلا تزال فلسفة « سبنسر » موضع التقدير . وإذا كان هذا الفيلسوف لم يترك من بعده مدرسة جديرة بالذكر فى إنجلترا فإن مذهبه اقتحم معاقل الوضعية فى فرنسا والبراجماتية فى أمريكا والميكانيكية فى بلجيكا . فكان من أقوى رسله فى فرنسا ألفرد سبيناس ورينه ورمس ، وفى أمريكا سمول وماكدوجال وفى بلجيكا جيوم جريف ، وفى النمسا جملبوفتش وراتز نهوفر ، وفى إيطاليا فكارو ، ، وفى روسيا نوفيكوف وليلنفلد وأنصاره فى مختلف دول العالم يجلون عن الحصر .

* * *

ثالثاً ـ المدرسة الأنثروبولوجية

عندما أعلن كونت وتلاميذه عن ضرورة إنشاء علم جديد لدراسة ظواهر الاجتماع الإنسانى لقيت هذه الدعوة قبولا لدى طائفة غير يسيرة من العلماء الذين وجهوا نشاطهم إلى الدراسات المتصلة بنشأة الإنسان الأول ونظم الحياة البدائية فحاولوا أن يربطوا بين نتائجهم وبين ما يقول به علماء الاجتماع . ولم يحاول أنصار هذه المدرسة أن يدخلوا فى المناقشات التى أثيرت حول طبيعة العلم وطبيعة ظواهره ومدى استقلالها وارتباطها بظواهر العلوم الأخرى ، ولكنهم وجهوا مزيد عنايتهم إلى دراسة النظم البدائية ودراسة المجتمعات المتأخرة واعتبروا أن هذه الدراسة هى قطب الرحى من الدراسات الاجتماعية ، وأن علم الاجتماع إذا كان من الضرورى إنشاؤه ، فيجب أن يرسى قواعده على الدعائم التى يضعها علماء الأنثروبولوجيا . لأنهم بفضل بحوثهم ودراساتهم يحاولون الوصول إلى أصول النظم ويكشفون عن طبيعتها وعن مراحل تطورها ويتلمسون مبلغ انعكاسها فى الحياة الحاضرة . فكأن علم الاجتماع فى نظرهم هو علم أصول الحضارات والمدنيات القديمة .

وكان من الطبيعى أن تكون الدراسات الأنثروبولوجية على أشدها فى بلد مثل إنجلترا فهى بطبيعتها بلد بحرية يتوق أبناؤها إلى القيام بالرحلات والأسفار فى الآفاق البعيدة . هذا إلى أنها كانت أقوى الدول النازعة إلى الاستعمار وإلى كشف مجاهل القارات والوقوف على أحوال شعوبها ودراسة نظمها لأن مثل هذه الدراسات تخدم قضية الاستعمار . ولذلك اتجهت الدراسة الأنثروبولوجية فى مستهل قيامها وجهة سياسية استعمارية وسرعان ما أصبحت مطلبا علمياً .

والحق أن الدراسات الأنثروبولوجية بدأت قبل عصر كونت وبلغت حتى عهده شأواً بعيداً . فلما أعلن كونت عن ضرورة قيام علم الاجتماع أيده جمهرة الأنثروبولوجيين فى هذه الدعوى . غير أنهم اعتبروا أنفسهم أحق العلماء بحمل رسالة هذا العلم الجديد وإقامة دعائمه . ومن ثم ازدادوا حماساً فى جمع الحقائق وتحليلها ووضع القوانين المفسرة لأصول النظم وطبيعتها .

وكان من الطبيعى أن ينشغلوا بدراسة أصول النظم فى المجتمعات والقبائل الممثلة

للحياة البدائية . و لجأوا فى هذا الصدد إلى دراسة النظم التى شوهدت عند السكان الأصليين فى أستراليا وأمريكا باعتبار أن هاتين القارتين ظلتا قروناً طويلة قبل اكتشافهما بمنأى عن التيارات الحضارية التى اجتاحت العالم المتمدين . وإذا كان قد طرأ على النظم التى كانت سائدة عند هؤلاء السكان بعض التطور فقد كان هذا التغير ذاتياً وليس وليد التفاعل الثقافى والحضارى الناتج عن اتصال هذه الجماعات بشعوب خارجة عن نطاقها الاجتماعى أو المورفولوجى . كما أن هذه التطورات المحدودة لا يمكن أن تكون شيئاً مذكوراً إذا قيست بالتطور الذى طرأ على نظم العالم القديم وأوربا . ولذلك رأى علماء الأنثربولوجيا أن دراسة النظم الاجتماعية فى هذه الشعوب تلقى ضوءاً واضحاً على النظم الاجتماعية فى فجر نشأتها .

ومن ثم قويت الرغبة لدى طائفة كبيرة من علماء الإنجليز فى دراسة هذه الشعوب ، ورحل الكثيرون منهم إلى أستراليا وأمريكا وكان معظم هؤلاء من الجماعين المهرة الذين جمعوا الحقائق ورتبوها وحاولوا تحليلها لكشف أصول النظم والأوضاع فى القبائل التى كانت موضوع الدراسة والبحث .

وقد استلفت نظر هؤلاء جميعا نظام اجتماعى خطير توفروا على دراسته بقوة وعمق ، وذلك لبلغ أصالته ودقة التزاماته وخطر وظائفه فى هذه الشعوب . وهو ما اصطلحوا على تسميته بالنظام التوتمى «Totemism» نسبة إلى « التوتم » وهو الأصل الحيوانى أو النباتى التى كانت تعتقد هذه القبائل أنها منحدرة من أصلابه وأنها تؤلف معه وحدة اجتماعية ودرجة قرابة واحدة . ولذلك اتخذته معبوداً لها ورمزاً أو شعاراً لوضعها الاجتماعى وأنزلته وأنزلت ما يرمز إليه منزلة التقديس .

وكان أول من استعمل هذه الكلمة ترجمان من السكان الأصليين فى أمريكا الشمالية (من الهنود الحمر) اسمه «Lang» فقد اتصل بالأجانب النازحين إلى هذه البلاد وعرف الإنجليزية ثم اشتغل مترجما للأوربيين . وألف هذا المترجم فى أواخر القرن الثامن عشر كتاباً عنوانه « رحلات وأسفار لمترجم هندى » عرض فيه « أصول النظام التوتمى » ومدى انتشاره ومبلغ خطورته وارتباطه بمختلف نواحى النشاط الاجتماعى . وقد أثار هذا الكتاب اهتمام علماء الأنثربولوجيا وخاصة الطائفة التى تقوم بالبحث والتنقيب عن أصول النظم الاجتماعية فى هذه البلاد .

ومن ثم عكف العلماء على دراسة النظام التوتمى الذى ورد ذكره فى الكتاب المشار

إليه . وظنوا أن هذا النظام مقصور على شعوب أمريكا الشمالية وأن ليس له نظير فى البلاد الأخرى . وظل اعتقادهم هذا حوالى نصف قرن حتى نشر الرحالة الأنثروبولوجى الإنجليزى « جراى Grey »[١] كتابا شهيراً عن السكان الأصليين فى أستراليا ، درس فيه كثيراً من العادات والتقاليد المنتشرة هناك، وحلل طائفة لا بأس بها من النظم الاجتماعية السائدة وتتبع نموها وأصولها البعيدة وقارن بينها وبين ما وصل إليه زملاؤه الذين يدرسون فى الميدان الأمريكى . وانتهى بعد هذه الدراسة الوصفية التحليلية إلى نتائج هامة مؤداها أن النظام التوتمى أو الديانة التوتمية التى كشفها العلماء فى أمريكا الشمالية موجودة فى روحها وتفاصيلها عند سكان أستراليا الأصليين . وإن كانت أشكال النظام فى أمريكا قد أصابها التطور المحدود ، أو طرأت عليها التحولات النسبية فإن ذلك يرجع إلى أن أمريكا كانت أسبق من أستراليا وأكثر منها استهدافاً للتيارات الحضارية الزاحفة إليها من العالم المتمدين .

ومنذ ذلك الحين عكف العلماء على دراسة النظم التوتمية فى أمريكا وأستراليا مع التحليل والمقارنة وظلوا معتقدين أنهم بصدد نظم أثرية قديمة ليست لها صلة بالنظم القائمة أو بالديانات الإنسانية المعروفة ولا يوجد لها نظير فى الديانات الراقية حتى نشر العلامة « ماك لينان Mac Lennan »[٢] ، وهو من أقطاب المدرسة الأنثروبولوجية بحوثه الشهيرة فى هذه الدراسات ، وأوضح بصورة لا يرقى إليها الشك أن للنظام التوتمى بقايا ورواسب فى معظم العادات والتقاليد والطقوس الدينية المعروفة عند قدامى اليونان والرومان .

وسار بعده العلامة « روبرتسن سمث Robertson Smith » أوسع نطاقاً فقرر أن لهذا النظام نظائر وبقايا فى الديانات السامية .

وعقد مشابهات ومقارنات بين الطقوس التوتمية وطقوس هذه الديانات وذلك فى كتابه القيم عن « الديانات السامية »[٣] ثم عاد إلى امتحان نتائجه وحقائقه وقام بتحليل واسع النطاق بصددها فى كتاب آخر له عن « القرابة والزواج عند عرب الجاهلية »[٤] .

---

(1) Grey; North West and Western Australia.

(2) Mac Lennan : The Worship of Animals and Plants.

(3) R. Smith; The Religions of the Semites.

(4) R. Smith; Kinship and marriage in Early Arabian.

ثم جاء العلامة « فرازر Frazer » وقرر فى كتابه « الغصن الذهبي The Golden Bough » أن بقايا النظم التوتمية ليست مقصورة على الديانات السامية وغيرها ولكنها تركت رواسب واضحة فى العادات الشعبية الدارجة «Folklore» المنتشرة فى معظم شعوب أوربا. ومن ثم اتسع نطاق هذه الدراسات ، وأخذ كل باحث يدرس قبيلة معينة من السكان الأصليين ويحاول أن يهتدى إلى العلاقة التى تربط النظم الاجتماعية السائدة بالأصول التوتمية التى اهتدى إليها العلماء السابقون .

وأهم دراسة يعتد بها فى هذا الميدان هى البحوث والدراسات التى قدمها العالمان الإنجليزيان « جلن وبلدوين سبنسر «Gillen ; B. Spencer » فقد ذهبا إلى أستراليا وأقاما فيها ١٢ عاماً واختلطا بقبائلها ودرسا العادات والتقاليد وعرفا اللهجات الأصلية وحصلا على « الحق القبلى Initiation » وكانا بفضل هذا الحق يحضران الحفلات الدينية وأبيح لهما أن يتزينا بزى التوتم ويباشرا العمليات الطقوسية . وقد لخصا ما انتهيا إليه من دراسات وبحوث فى كتب كثيرة آخرها كتاب عنوانه «The Arunta» وهو يحمل اسم « قبائل أرونتا » التى تعتبر من أشهر قبائل أستراليا وأوسعها انتشاراً وأعرقها فى النظم التوتمية . ويعتبر هذا الكتاب أهم مراجع الأنثروبولوجية وأدقها وأوفاها قصداً . فلم يترك المؤلفان فى هذا الصدد زيادة لمستزيد .

هذا ، وينبغى أن نشير إلى أن حركة الدراسات الأتنجرافية والأنثروبولوجية قد انتقلت إلى أمريكا وانتشرت هناك بفضل جهود الرعيل الأول من الرحالة الإنجليز وعلماء الأنثروبولوجيا ومن ثم قام « المكتب الأتنلوجى الأمريكى » لتنسيق جهود الرحالة والعلماء والوقوف على الدراسات الاجتماعية التى تعمل فى بلادهم باعتبارها حقل الدراسة والتجربة لأقدم مظاهر الحياة الاجتماعية . ومن أنصار هذه الدراسة فى الوقت الحاضر فى أمريكا « وزلر ولوى وجولدنويزر Wissler; Lowie; Goldenweiser » .

وعلى هذا النحو خدم علماء الأنثروبولوجيا ميدان الدراسات الاجتماعية خدمة كبيرة بفضل ماجمعوه من مشاهدات وأوصاف وما قاموا به من شروح وتحليلات أنارت السبيل فى الوقوف على أصول النظم الاجتماعية الأولى . وكان معظم أنصار هذه المدرسة جماعين مهرة جمعوا الحقائق ورتبوها وفسروها . غير أنهم من الناحية النحط لهاية

يكونوا موفقين كل التوفيق . فقد كانت تعوزهم الناحية التحليلية للوصول إلى قوانين اجتماعية صحيحة تنهض الحقائق التى جمعوها دليلا على صحتها . وقد كمل النقص الذى بدا فى دراسات هؤلاء الرحالة علماء المدرسة الفرنسية لعلم الاجتماع من أتباع وتلاميذ العلامة دوركايم الذين تخصصوا فى الدراسات الأنثروبولوجية وبعض مشاهير المحدثين من علماء المدرسة الإنجليزية أمثال : « وسترمارك Westermarck » « جنزبرج Ginsberg » ، « فيرث Firth » ، « إيفانز برتشارد Ivans Pritchard » « ولايارد Layard » « ماريت Marett » وريفرز Rivers » « واليوت سمث Elliot Smith » .

وأهم الجهود التى بذلت فى ميدان الدراسات الأنثروبولوجية ما يأتى :

١ — دراسات العلامة « جيمس فرازر J. Frazer » وأهمها :

(أ) الغصن الذهبي «The Golden Bough» ويعتبر هذا المؤلف من أروع ما كتب فى موضوعه . وما جاء فيه من حقائق أحدث حركة علمية جديرة بالاهتمام والتقدير ، وهو يقع فى ستة أجزاء وكل جزء فى كتابين والكتاب يدور حول نظرية « فرازر » وملخصها أن الإنسانية فى تطورها مرت بمراحل ثلاث « السحر والدين ثم العلم » وفى ثنايا هذا البحث الاجتماعى والأنثروبولوجى عرض « فرازر » لنظريته فى الإله المذبوح «The Slain God» وخصص المؤلف الجزأين الرابع والخامس لدراسة الأديان الشرقية واليونانية والرومانية ، وكشف عن وثيق الصلة بين هذه الأديان وبين بعض المظاهر التوتمية . وخصص الجزء الخامس لدراسة أرواح النباتات والحيوان — والكتاب فى مجموعه وثيقة أنثروبولوجية خطيرة الشأن ولا غنى للمختصين فى الدراسات الاجتماعية من الرجوع إلى هذا السفر القيم .

(ب) « الاعتقاد فى خلود الأرواح وعبادة الموتى »

«The Belief in Immortality and the Worship of the Dead» وهو من البحوث القيمة التى كتبها العلامة « فرازر » ودرس فيه طائفة لا حصر لها من مظاهر عبادة الأرواح والاعتقاد فى خلودها لا سيما عند قبائل أستراليا الشمالية والجنوبية والقبائل الأفريقية وبعض الشعوب الشرقية . وأوضح مبلغ تفانى الشعوب فى تقديم ثرواتها قرابين لهذه الأرواح ، واعتبر هذا الاتجاه من جانب الإنسانية الأولى خلطاً بين معانى الخير والشر ، وتدميراً للموارد الإنسانية الأولى ، واضطراباً فى التفكير والمعايير المتعلقة بتقدير المنفعة

والضرر والحسن والقبح . وتحليله هذا لا يخلو من ضعف وسوء فهم لمنطق العقلية البدائية بالرغم مما ساقه من الأدلة والشواهد الأنثروبولوجية .

٢ – دراسات روبرتسن سمث «R. Smith» وأهمها كتابه « مقالات عن ديانات الساميين » والفكرة الأساسية التى يدور حولها هذا الكتاب هى أن الديانات السامية ترجع إلى أصول توتمية . ودلل المؤلف على أن الإنسانية كلها على اختلاف شعوبها وأجناسها وديانتها قد خضعت فى عصر ما للنظام التوتمى ولو أنها اختلفت فى درجات التطور فالبعض كان سريع الانتقال والبعض الآخر كان بطيئا . ومما يدل على عمق تحليل (سمث) أن العلامة دوركايم أطرى دراساته فى كتابه « الأشكال الأولى للحياة الدينية » وشهد بأنه كان دقيقاً فى كثير من الاعتبارات لا سيما نظريته فى الأضحية التى أحدثت ثورة فى النظرية التقليدية التى كانت تفسر على أساسها نظم الأضحية .

٣ – دراسات العلامة (تيلر) «Ed. Tylor» وأهمها كتابه « الحضارات البدائية » «Primitive Culture» يعتبر هذا الباحث فى نظرى أول من طرق ميدان البحث العلمى فى المسائل الدينية ولذلك جاء بحثه فى معظمه عبارة عن دراسة اجتماعية علمية لتاريخ الأديان . وفى الكتاب فصول ممتعة عن الميثولوجيا والفلسفة والدين والفن واللغة والعادات والتقاليد وتطور هذه المظاهر الثقافية ، وتكلم عن الأرواح وعرض تصورات البدائيين بصددها ويعتبر « تيلر » من أنصار المذهب الروحى فيما يتعلق بالدين ونشأته الأولى فى العقلية البدائية ، وله نظرية فى « الأضحية » تقوم على أساس « مبدأ الهبة » أيدها بكثير من الحقائق والشواهد الاجتماعية البدائية .

٤ – دراسات العلامة وستر مارك الفنلندى وأهمها :

1. The Origin of HumanMarriage (1889).
2. The History of Human Marriage (1898).
3. The Origin and Development of Moral Ideas (1906).
4. Ritual and Belief in Morocco (1926).
5. Ethical Relativity (1932).
6. Pagan Survivals in Mohammedan Civilization (1933).

ويبدو من هذه المؤلفات أن وسترمارك أولى مزيد عنايته إلى الظواهر الأسرية وتطورها فى مختلف البلاد التى زارها أو درس نظمها وعنى كذلك بالناحية الأخلاقية واهتم بكشف العلاقات التى تربط بين نمو أو تطور المعانى الأخلاقية ونمو أو تطور النظم الاجتماعية ويعتبر كتابه « أصل تطور المعانى الأخلاقية » من أقوى وأعمق المؤلفات الاجتماعية المعاصرة إذ يحتوى دراسة علمية وصفية تحليلية ونقدية لأهم الظواهر والنظم الاجتماعية . فقد درس نظم الزواج والطلاق والعلاقات والروابط الأسرية والختان ، والقرابة والانفصال والهجر ، ونظم الأخذ بالثأر والقتل والإعدام والشرف والمروءة والكرم ، وتقديم الضحايا والقرابين والمظاهر الطقوسية . وغيرها مما لا يتسع المقام لذكره .

• — بحوث ودراسات العالمين بولدوين سبنسر وجلن : وأهمها :

1. The Native Tribes of Central Australia.
2. The Nothern Tribes of Central Australia.
3. The Arunta.

تعتبر دراسات هذين العالمين أول دراسة وافية فى الميدان الأنثروبولوجى فقد ذهبا إلى أستراليا وأقاما فيها ١٢ عاماً واختلطا بالقبائل المتوطنة وتعلما لغاتها ولهجاتها وحققا كثيراً من المعلومات التى أتى بها علماء سابقون أمثال « مورجان وماك لينان » . وقد جاءت بحوثهما أوفى وأعمق وأدق تحليلا من بحوث معاصريهم وصرح العلامة دوركايم فى كتابه « الأشكال الأولى للحياة الدينية » بأنه اعتمد كل الاعتماد فى استنباط حقائقه وأحكامه التحليلية على ما كتبه هذان العالمان فهما خير من يؤتمن فى جمع الحقائق وتنظيمها وشرحها وتحليلها .

وبعد أن نشر (سبنسر وجلن) كتابيهما (الأول والثانى) المشار إليهما حدث أن ذهب العالم الألمانى «Strehlow» إلى أستراليا وأقام فى المناطق نفسها التى درسها هذان العالمان وأجاد اللغات الأسترالية القديمة وعكف على دراسة النظم الاجتماعية ووصل فى دراساته وبحوثه إلى نتائج تغاير فى بعض تفاصيلها ما قرره العالمان فى بحوثهما . وقد أثارت هذه المفارقات الرغبة فيهما لمعاودة البحث فدرسا للمرة الثانية قبائل «Arunta» وناقشا العلامة الألمانى «Strehlow» فى نتائجه وصححا كثيراً من المسائل التى عالجاها فى الكتابين السابقين ووضعا كتابهما الثالث بعنوان القبائل موضوع الدراسة «The Arunta»

وقد حدث أن توفى العلامة (جلن) قبل نشر هذا الكتاب العظيم . فنشره العلامة (بولدوين سبنسر) ورثى فى مقدمته صديقه وزميله فى الجهاد العلمى « العلامة جلن » .

والكتاب يقع فى جزأين وقدم له العلامة سبنسر بمقدمة عرض فيها الدوافع التى حدت بهما إلى وضعه وتكلم عن طبيعة البلاد وطبيعة السكان وتقاليدهم وعاداتهم والنظم الاجتماعية والدينية القائمة . ويمتاز هذا الكتاب بأنه محلى بالصور والألوان والخرائط . ومزود بطائفة كبيرة من الصور الفوتوغرافية التى تمثل الجماعات التوتمية والشيوخ والرؤساء ورجال الدين وهم فى الحلقات الطقوسية وفى أزياء التواتم . وفيه صور أخرى لمختلف التواتم وعلاقاتها والأشياء القدسية وأنواع الصخور المقدسة ، ولا شك أن هذه الصور وما إليها تقرب إلى القارئ الملاحظات والمشاهدات الوصفية المدونة .

٦ — دراسات أستاذنا الراحل « هوكارت » « A. M. Hocart » وأهمها كتابه « تقدم الإنسان » « The Progress of Man » وهو بحث مختصر لتطور الإنسان وتطور عاداته وأعماله فى مختلف مراحل التطور . وتكلم فيه عن بعض المشاكل الحيوية التى صادفت الإنسان الأول مثل كيفية الحصول على الغذاء وإنتاجه ونشأة فكرة التخزين ؛ وعرض للقوى المحركة للنظم الاجتماعية وكيفية وصول الإنسان إلى تحقيق بعض مطالبها الاقتصادية والاجتماعية . وقام هذا الباحث برحلات كثيرة فى ميلانيزيا وجزائر البورنيو وجمع حقائق هامة أفادت ميدان الدراسات الأنثروبولوجية .

٧ — دراسات العلامة اليس « A.B. Ellis » وأهمها :

1. The Ewe Speaking people of the Slave Coast.
2. Tchi Speaking people of the Golden Coast.
3. Yoruba Speaking people.
4. Polynisian Researches.

وتدور كل هذه البحوث حول دراسة القبائل الأفريقية وسكان جزر بولونيزيا .

٨ — هذا ، ولا يمكننا أن نقلل من شأن البحوث التى قام بها بعض أعضاء المدرسة

الأنثروبولوجية مما لا يتسع المقام لذكره وأجدرهم بالتنويه .

Rivers; Arthar Keith; Robert Britfault; Malinowsky, Maine; Lange fox; Rerry; Lord Raglan; Labbock.

رابعاً ـ المدارس الاجتماعية التطبيقية

انتشرت تعاليم « لبلاى » فى إنجلترا وتأثرت بها حلقات وهيئات عامية كثيرة أجدرها بالذكر ما يأتى :

١ ـ مدرسة أدنبرة Edinburgh :

أول من أسس هذه المدرسة العالمان الشهيران « باترك جدز » Patrick Gedds « (١٨٥٤ ـ ١٩٣٢) و « فكتور برانفورد Victor Branford » (١٨٦٤ ـ ١٩٣٠) . وبالرغم من الجهود العلمية الجديرة بالثناء والتقدير التى بذلها هذان المفكران فى خدمة أغراض علم الاجتماع والعمل على تقدمه ، وبالرغم من أنهما أثقلا حياتهما بعمل مثمر متواصل ، فإن آراءهما لم تنل ما كانت تستأهله من التقدير ولم يحفظ لهما تاريخ العلم ما يستحقانه من الاعتبار . ويرجع السبب فى ذلك إلى أصالة تفكيرهما وجدة اتجاههما واستخذامهما مناهج رياضية وطرق هندسية وأشكالا ورسوماً تصويرية تترجم عن حقائق اجتماعية . وهذه الأمور وما إليها لم تكن مألوفة فى علم الاجتماع ولاسيما لدى المدارس الاجتماعية الخاضعة للفلسفة والأدب .

وسنقول كلمة موجزة فى التعريف بهذين العالمين :

جدز «Gedds» . أسكتلندى النشأة . درس فى شبابه الكيمياء والطبيعة والبيولوجيا . وتعرف على علماء كثيرين من أشهر رجالات العصر أمثال هكسلى وهيكل وداروين وسبنسر . وزار فرنسا ووثق علاقته بعلمائها العظام أمثال : لبلاى ودمولان ودوركايم وبرجسون ، وكان يعتبر فرنسا وطنه الثانى شأن معظم مفكرى الإنجليز . وقضى فيها أخريات أيامه حيث اتخذ له مقاماً هادئاً فى ضواحى « مونبليه Montpellier » مسقط رأس « أوجست كونت » منشئ علم الاجتماع الحديث والرائد الأول لعلمائه .

تتلمذ فى شبابه على « Huxley. Haeckel » حيث درس علوم الإيكلوجيا والمورفولوجيا والبيولوجيا وتعمق فى هذه الدراسات وبدأ يتخذ لنفسه اتجاهاً واضحاً بين المفكرين المعاصرين له . فرفض ما يذهب إليه « سبنسر » من تشبيه المجتمع بالكائن الحى واعتبر الحياة الاجتماعية فى الإنسان حياة مميزة فى ذاتها تسير جنباً إلى جنب مع مظاهر الحياة الأخرى التى يخضع لها . وناقش « لبلاى » فيما ذهب إليه بصدد العوامل الأساسية التى تؤثر فى البنيان الاجتماعى وهى : «Lieu; Travail; Famille (Folk)

ورأى أن هذه العوامل ضيقة النطاق وأنه ينبغى أن نوسع من دائرتها فوضع فى مقابلها العوامل الآتية : «Environment; Function; Organism»

وقام (جدز) برحلات فى إنجلترا وخارجها ليستكمل أسباب ثقافته وتكوينه العلمى . ثم عاد إلى (أدنبره) وأصبح محاضراً فى علم الحيوان بمدرسة الطب . وعكف فى هذه الفترة على التعمق فى الدراسات البيولوجية ثم شغل كرسى النبات فى جامعة «Dundee» وبدأ يؤلف . ومن أوائل إنتاجه العلمى كتاب عنوانه تطور الجنس «Evolution of Sex» ونشر بمساعدة تلميذه آرثر طمسون «A. Thomson» طائفة من الكتب نشرت فى مجموعة « Home University Series » أهمها : الجنس « Sex » ؛ التطور « Evolution » علم الحياة «Biology» .

وأولى «جدز» مزيد اهتمامه بالدراسات الاجتماعية التطبيقية وبدأ بدراسة شئون الصناعة وأثر التصنيع فى تطور المدينة من النواحى الاجتماعية والأكلوجية والتخطيطية وما يتصل بذلك من شئون التعمير والإسكان والمرافق العامة والمنشآت الاجتماعية وأنشأ بمدينة أدنبره عام ١٨٩٢ متحفاً يسمى «Outlook Tower of Edinbourgh» واتخذه حقلا لتجاربه ومعملا اجتماعياً لدراساته فضلاعن أنه كان متحفاً إقليمياً . وطبق منهجه على دراسة مدينة أدنبرة ووضع فى هذا الصدد بحثين : « المسح الاجتماعى لمدينة أدنبرة » و « تطور المدينة مع دراسة تخطيطية لهندسة الحدائق والمتنزهات » . وبينما كان (جدز) يقوم بالمسوح الاجتماعية فى منطقة أدنبرة ؛ كان تلميذه وزميله (فكتور برانفورد) يقوم بمثل هذا العمل فى منطقة لندن . بيد أن بحوث ودراسات الأستاذ كانت أعمق وأدق وأكثر تركيزاً من بحوث التلميذ وذلك لثبات قدمه فى مختلف الدراسات التى تخدم أغراض المسح الاجتماعى . وأذاع (جدز) آراءه فى التطبيقات الاجتماعية وهى ترتكز على القضية التى

مؤداها « المسح الاجتماعى قبل الفعل » Social Survey before action « واعتبر هذه القضية الأساس الذى ترتكز عليه مشروعات الإصلاح والتخطيط الاجتماعى . ومن برج جدز ؛ مركز الإشعاع العلمى فى أدنبره ؛ خرجت هذه النظرية وانتقلت إلى أمريكا ولاسيما إلى شيكاغو بفضل العلامة « شارل زبلن Charles Zueblin » أحد أتباع المدرسة وهو مواطن من شيكاغو وأخذ على عاتقه نشر منهج الأستاذ والقيام بحركة مسوح اجتماعية واسعة النطاق فى مدن أمريكا .

وجعل (جدز) متحفه مقراً للمناقشات والمحاضرات العلمية ، فكان يدعو فى الصيف ثقاة المفكرين وكبار العلماء فى القارة الأوربية لزيارة « متحف أدنبره » «Outlook Tower» وإلقاء محاضرات على مستوى عال ، وعرض مشكلات العصر على بساط البحث ؛ وكان من بين المترددين على أدنبره العلامة الفرنسى «Elisée Reclus» وهو من علماء الجغرافية العالميين ؛ والفيلسوف الروسى الفوضوى «Peter Kropotkin» .

ومنذ عام ١٩٠٠ أقام (جدز) فى لندن وساهم بنصيب يذكر فى إنشاء الجمعية الاجتماعية ومعهد علم الاجتماع والمجلة الاجتماعية عام ١٩٠٣ وذلك بالاشتراك مع زميله «V. Branford» وألقى فى هذه الفترة محاضرات جامعية هامة فى الموضوعات الآتية : الإقليم والمدينة ؛ التطور الاجتماعى المعاصر ؛ المدن ؛ تطور المهن والوظائف ، المدخل إلى علم الاجتماع الصناعى والعمل وعلم الاجتماع وغير ذلك من الموضوعات الاجتماعية الهامة[1].

وشغل كرسى أستاذ علم الاجتماع بجامعة لندن . ولأمر ما يتعلق بمحاضراته العلمية ، أقيل وشغله من بعده أحد الشبان البارزين فى علم الاجتماع وقتئذ وهو العلامة « هوبهوس «Hobhouse» . وفى عام ١٩٢٠ دعى إلى الهند ليشغل كرسى الاجتماع بجامعة بومباى واستمر هناك أربعة أعوام وقام فى هذه الفترة بعمل مسوح اجتماعية لمدن كثيرة فى الهند وفلسطين . وكان الجهد قد بلغ منه مبلغاً كبيراً وطلب مساعداً له يقوى على متابعة نشاطه وأفكاره وقد ظل تلميذه برانفورد إلى جانبه حتى أخريات أيامه .

وأهم نقط الارتكاز فى فلسفة جدز الاجتماعية ما يأتى :

١ — اهتم بالتحقيقات والمسوح الاجتماعية وأولى عنايته للاجتماع التطبيقى ولم يغرق

فى علم الاجتماع النظرى . وهو الذى وضع القضية الشهيرة «Survey before action» ويقال إنه فى المدة ما بين ١٩١٤ إلى ١٩٢٤ قام بمسح وتخطيط ما يقرب من ٥٠ مدينة فى الهند وفلسطين فقط وذلك بالاشتراك مع ابن زوجته فرانك ميرس [1] «Frank Mears» وذلك بخلاف ما قام به من مسوح وتحقيقات اجتماعية فى بلاده .

٢ — درس مقومات الحياة الاجتماعية وردها إلى ثلاثة عوامل : البيئة ، الوظيفة ، التركيب العضوى : ولذلك ذهب إلى أن هناك ثلاثة علوم أساسية يجب أن تلحق بعلم الاجتماع وهى : الجغرافية (علم البيئة) ، والاقتصاد (علم العمل) ، والأنثروبولوجيا (علم الإنسان) .

٣ — نعى على المعاصرين له إسرافهم فى إبراز أثر العوامل الحيوية والبيئية . فالمجتمع لا يتأثر بهذه العوامل فحسب ، ولكنه يتأثر كذلك بعنصر الزمن . أى أن المجتمع بفضل تراثه الاجتماعى وتحسين ظروفه وأحواله يخلق طاقة حرة تمكنه من أن يضع قوانينه ونظمه ويقرر مستوياته الفنية والفكرية والدينية .

٤ — فكما يتأثر المجتمع بالبيئة والعمل والسكان ، فإنه ينطوى كذلك على مجموعة من العوامل الاجتماعية : سياسية وثقافية واقتصادية وفنية . أى ينبغى أن نضيف قوة المجتمع إلى قوة البيئة عندما نريد أن نحدد مقومات الحياة الاجتماعية . وينتهى « جدز » من تحليله إلى تقرير قضية ملخصها « أن الحتم والضرورة إنما يحكمان أحط مستويات الحياة ؛ أما الحرية الخالقة فهى من خصائص مستويات الحياة الراقية » .

٥ — كان يكره الحكم المطلق ويندد بالإسراف فى السلطة ويميل إلى اللامركزية . فكان يؤيد سياسة استقلال المدن فى شئونها الخاصة وتنظيم الأقاليم وفق ظروفها . وكان ضد البيروقراطية والنزعة الحربية ، ويؤيد حرية العمل والتعاون الاختيارى ، وكان يكره الأرستقراطية والديمقراطية الجاهلة ، ويؤيد المزج بين الأرستقراطية المعتدلة والديمقراطية المستنيرة .

وترك (جدز) وراءه مؤلفات كثيرة ومادة زاخرة غير مطبوعة : مقالات وبحوث ، وكتب غير كاملة ، ووثائق ومذكرات يومية وجميعها محفوظ فى متحفه «Outlook Tower»

---

(1) Barnes : Introduction to the History of Sociology , p. 682.

وينشر منها تباعًا ما تتاح الفرص لنشره . وبعض المؤلفات كتبها بمفرده والبعض الآخر ألفه بالاشتراك مع زميليه وتلميذيه (أرثر طمسون وفكتور برانفورد) .

(ا) وأهم مؤلفات (جدز) وتحقيقاته التى كتبها بمفرده :

The classification of Statistics (Edinburgh 1881).
An analysis of the principles of Economics (Ed. 1885).
Civic Survey of Edinburgh (Ed. 1911).
City Development : A Study of Parks; Gardens; and Culture institutes (1904).
Cities in Evolution . (London 1915).
Report to the Durbar of Indore (2 Vol. 1920).
Sociological papers (Publications of the Socio-Society).
Essentials of Sociology in relation to Economics.
Talks from My Outlook Tower (1925).

(ب) مؤلفات بالاشتراك مع تلميذه آرثر طمسون .

The Evolution of Sex (2 Vols London 1889).
Evolution (New York 1912) — Sex (New York 1914).
Biology (N. Y,1925) — Life outlines of Bio. 1931.

(جـ) بحوث بالاشتراك مع تلميذه فكتور برانفود

The Coming Polity (London 1917).
Our Social Inheritance (London 1918).
The Coal crisis and the future (1926).
Coal-Ways to Reconstruction (1926).

١ — فكتور برانفورد V. Branford :

تلميذ مخلص للعلامة (جدز) . بدأ حياته بدراسة البيولوجيا وتأثر بالثقافات المحيطة به . غير أنه اضطر ، لظروف عائلية قاهرة ، أن يقطع هذا الطريق الدراسي الطويل

الذى كان يؤهله لوظائف التدريس ، ويتعلم المحاسبة والنظم المالية . وبالفعل أصبح موظفا حاسباً . وسافر إلى أمريكا الجنوبية والتحق بمصلحة السكك الحديدية فى براجواى وكان فى غربته يتابع دراسات وبحوث أستاذه ، ثم انتقل إلى الولايات المتحدة وكان أستاذه قد سبقه إليها . وتعرف فى شيكاغو على باحثين كثيرين عملوا على نشر طريقتهم فى المسح والتحقيق الاجتماعى . ثم عاد بعد ذلك إلى إنجلترا .

وفى عام ١٩٠٣ (وهو العام الذى توفى فيه هربرت سبنسر) نشر فكتور برانفورد بحثاً وزعه على المختصين من علماء الاجتماع والمشتغلين بهذا العلم من رجال الأعمال عنوانه « أصل واستعمال لفظ علم الاجتماع »[1] وطلب منهم إبداء الرأى فى إنشاء جمعية اجتماعية علمية . وقد استجاب كثيرون إلى هذه الدعوة وتم إنشاء هذه الهيئة العلمية «The Sociological Society» وانضم إليها أشهر دعائم الحركة الاجتماعية فى إنجلترا أمثال : وستر مارك ، بريس ، جدز ، ولاس ، سلى ، هوبهوس ، هوبسن ، كد . وسرعان ما تحولت الجمعية إلى مهد للدراسات الاجتماعية «Institute of Sociology» . وقد أشرف على المعهد لفيف من العلماء الذين يمتازون بشهرة عالمية فى ميدان الدراسات الاجتماعية أمثال : مارت ، باركر ، جوش ، جنزبرج ، مانهيم . وقد اهتم هؤلاء جميعاً بالدراسات الاجتماعية وقام بعضهم بعمل مسوح وتطبيقات كثيرة . وأولوا عنايتهم إلى الكشف عن أهمية وضرورة المحركات الدينية والأخلاقية فى قيم المجتمع ونظمه وذلك بجانب مؤثرات البيئة وظروف الحياة .

وكانت حياة برانفورد حياة علمية مليئة بالنشاط والحيوية . فلم يعرف يوماً ما السأم أو الكلل . وكان من الأشخاص القلائل الذين يجمعون بين التفكير النظرى وبين وظيفة رجل الأعمال . فهو من الناحية العلمية والمهنية ينتسب لتلك الطائفة المتواضعة من المحاسبين ، ومن الناحية النظرية كان عالم اجتماع ومؤرخاً وفيلسوفاً . وكان من المدرسة التى تعتبر علم الاجتماع علماً مستقلا ينبغى أن يقوم على الملاحظة والتحقيق والتجريب . وينبغى أن يجرد نفسه من التصورات والمعانى الفلسفية والنفسية التى تتخذ أساساً لتفسير حقائقه . لأن حقائق الاجتماع لا تفهم جيداً ولا تفسر إلا فى ضوء العمليات الاجتماعية ، وكان عملياً فى بحوثه وتطبيقياً فى دراساته . ووسع مفهوم لفظ : « مسح «Survey»» فلم يقصد به مجرد دراسة

(1) Origin and use of the Word Sociology.

البيئة دراسة سطحية فى ظل النظم القائمة والحاضرة كما تذهب إلى ذلك المدارس الأمريكية ؛ ولكنه كان يرى أن المسح هو دراسة دقيقة لظروف البيئة ومبلغ احتياجاتها مع ربط هذه الدراسة الحاضرة بأصولها التاريخية والثقافية والرجوع إلى مقومات إرثها الاجتماعى من عرف وعادات ومثل وقانون ونظريات وأفكار . لأن الوقوف على هذه الحقائق هو القاعدة العلمية التى ترتكز عليها رسالة الإصلاح ، وهو الأساس الذى تبنى عليه سياسة التخطيط الاجتماعى .

وأهم دراسات (برانفورد) ما يأتى :

Interpretations and Forecasts (New York 1914).

Science and Sanctity (London 1924).

Living Religions (London (1952).

Papers for the Present (Series 1917 — 1920).

Articles on Sociology (Chambers'; Britain. Encyc).

وذلك بخلاف ما أشرنا إليه من بحوث وتحقيقات قام بها بالاشتراك مع (جدز) .

٢ ــ مدرسة البحث الاجتماعى :

وهى المدرسة الاجتماعية التطبيقية بالمعنى الصحيح . فقد قام أعضاؤها بدراسات ومسوح اجتماعية للبيئات المحلية «Cities; Communities» سواء فى الريف أو المدن وذلك للوقوف على احتياجاتها الاجتماعية وتقرير طائفة من الإصلاحات ووضع التشريعات التى تحقق الرفاهية الاجتماعية . ووجه هؤلاء مزيد عنايتهم إلى دراسة بعض الطبقات مثل الطبقة الكادحة والعاملة للوقوف على ميزانية الأسرة الفقيرة وما تحتاج إليه من مساعدات ومحاولة الارتقاء بظروف العامل الصحية والنفسية والثقافية منعاً لانتشار الانحرافات والاتجاهات الشاذة ودرءاً لأخطار الشيوعية الزاحفة على البلاد من شرق أوربا .

وكانت هذه الدراسات كلها فى الميدان الاجتماعى «Field work» ومزودة بالإحصائيات الدقيقة والمقارنات المحلية والقومية والدولية . حتى تكون نتائج البحث أدنى

إلى طبائع الأمور وأقرب إلى التحقيق العلمي المنهجي . وكان الغرض الذى تهدف إليه هذه المدرسة هو النهوض بالحالة الجماعية وتنظيم ميدان الخدمات العامة وتنسيق جهود الإصلاح وتكاملها حتى تثمر بأسرع نتيجة مأمونة النجاح بدلا من تشتيت القوى وتنافر الجهود والتعثر فى برامج التنفيذ . هذا إلى رغبتها فى سد النقص البادى فى التشريعات الاجتماعية والاقتصادية والقضاء على عوامل الانحلال التى أخذت تستشرى فى البلاد منذ قيام الحركات الثورية والانقلابية فى بعض أجزاء الشعوب الصناعية الكبيرة وساعد على انتشارها تهاون المسئولين وفشلهم فى تنظيم برامج فعالة للمساعدات الفنية والاجتماعية والمالية اللازمة لمختلف طبقات الشعب وهيئاته . وأشهر رجال هذه المدرسة هم :

(ا) شارل بوث «Ch. Booth» وقام ببحوث اجتماعية أهمها « الحياة والعمل بين سكان لندن »[١] «ومسح جديد للحياة والعمل فى لندن »[٢] .

(ب) وليم بفردج «W. Bevirdge» . اشترك مع بوث فى كثير من بحوثه .

(حـ) كارسواندر «Carr Saunders» وقام ببحث ضخم فى ثلاثة أجزاء عنوانه « مسح اجتماعى لمنطقة مرسيسيد »[٣] .

(د) كارادج جون «Caradog Jones» قام بمسح اجتماعى لمدينة لفربول ووضع مؤلفاً عنوانه « تطور المسح الاجتماعى فى إنجلترا منذ عهد بوث »[٤] . واشترك مع (ساوندر) فى دراساته وتحقيقاته .

(هـ) وقام أنصار هذه المدرسة بمسوح محلية فى أجزاء كثيرة : فدرس هنرى مس «H. Mess» مدينة «Tyneside» وأوين «Owen» مدينة شفيلد، ورتشارد أفانز «R. Avans» «H. Mess» مدينة هل «Hull»، وبرسى فورد «Percey Ford» مدينة ساوثمبتن وهربرت توت «H. Tour» مدينة برستول .

---

(1) Life and Labur of the people in London.

(2) New Survey of London life and Labuor.

(3) The Social Survey of Merseyside.

(4) Evolution of the Social Surrvey in England Since Booth.

٣ – مدرسة الرأى العام :

تخصص بعض أنصار هذه المدارس التطبيقية فى دراسة الرأى العام والوقوف على اتجاهاته بصدد المشاكل التى تنشأ فى جو المجتمع أو فى محيط العلاقات الدولية وأبرز من لمع اسمه فى هذا الميدان توم هاريسون «Tom Harrisson» وشارل مادج «Ch. Madge» .

قام الأول برحلات فى جزر البورنيو والباسفيك وعمل مسوحًا اجتماعية للبيئات التى زارها وضغط بصفة خاصة على اتجاهات الرأى العام . واقتنع بعد هذه الرحلات بأننا لا نعرف من أمر الشعوب التى نعيش بينها أكثر من معرفتنا بهذه المجتمعات البدائية ، وأن الواجب يقتضينا أن ندرس عادات وسلوك شعوبنا بالطريقة نفسها التى ندرس بها أخلاق وعادات وأفكار الشعوب البدائية أو المتخلفة اجتماعيًا . ولذلك نراه ينعى على العلماء المعاصرين له اهتمامهم بدراسة المجتمعات البدائية أكثر من اهتمامهم بالمجتمعات المتحضرة ، ونصح لهم بتطبيق مناهج البحث المتبعة فى دراسة أحوال البدائيين على دراسة الاتجاهات والآراء العامة فى الشعوب المتطورة . واهتم هذا الباحث وزملاؤه بدراسة القوى المحركة لنشاط الأفراد فى الحياة الاجتماعية والقوى المؤثرة فى الرأى العام وفى نفسية الطبقات ومبلغ عمق الوجدان الطبقى أو الذاكرة الطبقية «Class Conscience» وأثر ذلك فى توحد مواقف المجتمع إزاء ما يجرى فيه من حوادث سياسية واقتصادية ودولية .

أما « شارل مادج » فكان صحفيًا اهتم بدراسة أثر الصحافة فى الرأى العام وخاصة فى الطبقات العاملة . ودرس القوى المؤثرة فى التقريب الفكرى بين مختلف الطبقات حتى يمكن خلق رأى عام موحد يعبر عن مبلغ الوحدة العقلية والشعورية بين الأفراد .

وأنشأ أنصار هذه الدراسات مجلة تعبر عن آرائهم عنوانها « صحيفة الرأى العام » « Journal of opinion and Attitude Research » هذا ، ويرجع إلى أنصار هذه المدرسة الفضل فى دراسة أثر الحروب والأزمات الاجتماعية والهزات الدولية فى تغيير مواقف المجتمع وقيمه تغييراً جوهريًا سريعًا لا يتمشى مع معايير الضبط الاجتماعى ولا يتفق مع الاتجاهات الطبيعية المألوفة . كما حدث بصدد سياسة أمريكا وموقفها أثناء

الحربين الأخيرتين فقد خرجت عن سياسة العزلة وعن تأييد قضية السلام ومبادئ الحياد الإيجابى . والتجأت إلى سياسة الأحلاف وإثارة الحروب الباردة بينها وبين المعسكر الشرقى . وظهر أثر هذه المدرسة فى تعزيز قضية الحقوق الإنسانية وخاصة حقوق المرأة السياسية ويرجع إلى هذه المدرسة دعائم الفضل فى إنشاء معاهد الرأى العام وأشهرها معهد العلامة « فرنون «Vernon» .

٤ ــ مدرسة الاقتصاد فى لندن London School of Economics :

قام أساتذة مدرسة الاقتصاد السياسى فى لندن بعمل تطبيقات ومسوح اجتماعية فى كثير من أجزاء الجزر البريطانية . وكانت غايتهم من ذلك الوقوف على احتياجات المجتمع ومعرفة ظروف الحياة الاقتصادية وتطورها والقوى المؤثرة فيها . ويتمى معظم أنصار هذه المدرسة إلى جماعة الفابيين الذين يمثلون فى إنجلترا الاشتراكية المعتدلة وأهم البحوث التى عملت فى هذا الميدان ما قام به سدنى وزوجته باتريس وب وعنوانه « برنامج الهيئة الاشتراكية فى بريطانيا العظمى » . ومن أشهر أنصار هذه المدرسة مالينوسكى «Malinowsky» وهارولد لاسكى «Harold Lasky» وموريس جنزبرج «M. Ginsberg» .

خامساً ــ مدارس اجتماعية محدودة

بجانب الاتجاهات الرئيسية التى أشرنا إليها توجد مدارس خاصة محدودة النطاق واتجاهات فرعية جزئية أجدرها بالذكر ما يأتى :

١ ــ المدرسة الفابية Fabian Society :

تكونت جماعة الفابيين فى أوائل عام ١٨٨٤ بفضل طائفة من المفكرين الذين ينتمون إلى المعسكر الاشتراكى . وكان هؤلاء يجتمعون منذ عدة سنوات مضت لدراسة المشاكل السياسية والاجتماعية التى حفل بها عصرهم والبحث فى أفضل الوسائل التى ينبغى

الالتجاء إليها للقضاء عليها والعمل على إشاعة قدر معقول من المساواة والعدالة الاجتماعية ؛ وكانوا جميعاً من رواد الإصلاح الاجتماعى ومن المثقفين ثقافة عالية ومن المتصلين بالشئون العامة فى الدولة . وكان اطلاعهم واسعاً فى المسائل الاقتصادية والسياسية وكان معظمهم متأثراً بالاتجاه الاشتراكى ولا سيما الاشتراكية الزراعية التى أذاعها الاشتراكى الأمريكى « هنرى جورج » فى كتابيه « أراضينا وسياسة الأرض ؛ والتقدم والفقر » ولا سيما ماتنادى به من أن قيمة الأرض من خلق المجتمع وترتفع هذه القيمة بتقدم المجتمع وتطوره وزيادة مطالب الحياة فيه . وقام معظم أنصار هذه المدرسة بعمل شروح وتعليقات على نظريات ماركس وميل ومن إليهما من مفكرى العصر .

وقد انضم « جورج برناردشو » إلى هذه الجماعة فى أواخر عام ١٨٨٤ والتحق بها فى السنة التالية « سدنى وب وزوجته والسيدة آن بزانت » وكانوا جميعاً من أنشط أعضاء الجمعية وأقواهم شأناً .

ولم يكن هدف الفابيين تكوين حزب أو منظمة سياسية أو الاشتراك فى الحركات العمالية أو الدعوة إلى التكتل الطبقى والقيام بالمؤامرات والانقلابات ولكنهم كانوا جمعية إصلاحية ترمى إلى نشر الوعى الإصلاحى وتقديم خدمات اجتماعية فى كل ما تدعو إليه النظرية الاشتراكية المعتدلة . والعمل على نشر الاشتراكية كما يفهمونها وليس كما يفهمها ماركس أبو المدارس الاشتراكية القائمة . ولذلك أعلنوا للمسئولين أن نظام الحرية الاقتصادية المطبق على نطاق واسع يوفر رغد العيش لفئة قليلة على حساب شقاء الكثيرين ؛ وأن مطالب تطور الحياة الاجتماعية تستدعى ضرورة التفكير فى إعادة تنظيم المجتمع بطريقة تضمن السعادة والرفاهية للجميع . وقد وضح اتجاههم نحو تحقيق اشتراكية المجتمع فى البرنامج الذى نشره «Shaw» بمناسبة التحاقه بالجماعة فى سبتمبر عام ١٨٨٤ وقد دعا فيه إلى « تأميم الأرض » وحث الحكومات على أن تتدخل بكل قوتها وكافة أجهزتها فى شئون الإنتاج وتنظيم العلاقات الاقتصادية .

وقد ساهمت هذه الجماعة عندما اتسع نطاقها فى كثير من الأمور السياسية وعملت على نشر أفكارها وانضم إليها الكثيرون من مختلف الهيئات والاتحادات العمالية والشعبية الرامية إلى الإصلاح . وقام أعضاؤها بنشر الكتب والمقالات وإلقاء المحاضرات التى تهدف إلى شرح وتبرير النظرية الاشتراكية المعتدلة ؛ وترسم الطريق السوى لتنفيذ البرنامج الاشتراكى عن طريق التشريع والإدارة . وحضر مندوبيها فى المؤتمرات السياسية الدولية :

وقد اتبع معظم الفابيين فى كتاباتهم التقليد الماركسى وذلك بأن أقاموا مذهبهم الاشتراكى على أسس اقتصادية وتاريخية . غير أن المادة التى اعتمدوا عليها فى تحليل الحقائق ليست هى المادة التى استخدمها ماركس . فلم يأخذوا بوجهة نظره فى أن العوامل الاقتصادية هى القوى الحقيقية التى تؤثر فى التطور التاريخى . وأن جميع التغيرات التى تحدث فى شئون السياسة والأخلاق والدين والاجتماع إنما ترجع إلى تغيرات مماثلة فى العلاقات الاقتصادية . ولم يتخذوا من المادية التاريخية تبريراً لنظرياتهم الاشتراكية ، ولكنهم اعتمدوا على هذه الحقائق التاريخية والاقتصادية فى البرهنة على أن التطور الطبيعى للمجتمعات يسير فى حركة مستقيمة نحو تحقيق الاشتراكية والديمقراطية معاً . وقد شرح « وب » هذه الفكرة فى البحث الذى نشره عام ١٩٢٠ وعنوانه « دستور الهيئة الاشتراكية فى بريطانيا العظمى » وفيه يحمل على ماركس وعلى دعاة الثورة وهواة التمرد ، ويناشد الطبقات المستنيرة للعمل على بث الفضائل وتقوية دعائم التعاون بين مختلف الطبقات وينتهى من دراسته إلى القول بأن حوادث التاريخ تكشف لنا عن التقدم المستمر المزدوج فى النظامين : الاشتراكى والديمقراطى . وفى ضوء هذا الاعتبار تعتبر الاشتراكية هى روح بنيان المجتمع الديمقراطى .

هذا ، وقد اعتمد الفابيون فى تبرير مذهبهم الاشتراكى على نظرية « القيمة » فقد اعتبروها من خلق المجتمع وليست من خلق العمال وحدهم ، وهدف الاشتراكية فى نظرهم هو إتاحة الفرص لكل فرد بأن يأخذ نصيبه من جميع القيم التى يخلقها المجتمع لأفراده دون إيثار طبقة على الأخرى . والسبيل الواضح لتحقيق هذا الهدف هو تحويل ملكية الأراضى الزراعية ورأس المال المنتج إلى ملكية المجتمع على أن تكون الحكومة هى الممثلة للمجتمع من حيث هى شخصية معنوية ولا تنتقل إلى طبقة معينة وهى طبقة العمال . وكان الفابيون يثقون ثقة لا حد لها فى أهلية الحكومة الديمقراطية فى أوربا وأمريكا لتنفيذ البرنامج الاشتراكى الذين يهدفون إليه .

وبالرغم من أن الفابيين كانوا اشتراكيين ، غير أنهم كانوا استعماريين فلم يقفوا فى سبيل الروح القومية ونزعتها الاستعمارية ، ولم يحاربوا سياسة الإمبراطورية الاستعمارية . وعملوا من جانبهم على صبغ هذه السياسة بالصبغة الاشتراكية وحثوا الحكومات على أن تجعل من سياستها الدولية وعلاقاتها بالمستعمرات سياسة اشتراكية ، وظهر أثر ذلك فى ظهور فكرة الـ «Commonwealth» « الكومنولث البريطانى » ومنح الاستقلال الذاتى

لكثير من أجزاء الإمبراطورية مثل كندا وجنوب أفريقية والهند . وحققت هذه المدرسة للشعب البريطانى خدمات اجتماعية وإنسانية عاجلة ، وقامت بطائفة من الإصلاحات الاجتماعية والعمرانية ودعت إلى تعزيز الناحية الروحية والوجدانية والقضاء على الاتجاهات غير القومية التى تثيرها دولية العمال .

٢ – المدرسة النفسية :

تأثرت طائفة كبيرة من مفكرى الإنجليز بالدراسات النفسية وعالجت موضوعات علم الاجتماع فى ضوء قوانين وحقائق علم النفس . ومن أنصار هذا الاتجاه « هوبهوس » «Hobhouse» الذى عنى بدراسة التطور الاجتماعى وأرجعه إلى زيادة قدرة العقل على بحث المشاكل وسيطرته على ظواهر الطبيعة وتمكنه من كشف القوانين التى تنطوى عليها هذه القوى الطبيعية . فكل كشف جديد يعبر فى نظره عن انتقال الإنسانية إلى مرحلة أرقى . وفى ضوء هذه النظرية يعتبر التطور الإنسانى نزوعًا إلى الكمال وارتقاء فى معايير القيم . وبذلك يقترب « هوبهوس » من أصحاب فلسفة التاريخ .

وتظهر الاتجاهات النفسية بصورة واضحة عند طائفة من المفكرين الذين درسوا العلاقات الاجتماعية وحاولوا أن يكشفوا عن القوى المؤثرة فى هذه العلاقات : وأشهر هؤلاء العلامة الكسندر سذرلاند «A. Sutherland» الذى أرجع القوى المؤثرة فى العلاقات الاجتماعية إلى المشـــاركات الوجدانية . والعلامة بنيامين كد «Kidd» الذى أرجع هذه القوى إلى الدين . ومنهم كذلك جراهام والاس «G. Wallas» الذى وجه مزيد عنايته إلى التحليل النفسى للطبيعة الإنسانية . والعلامة « وليم مكدوجال «W. Macdougall» الذى وضع أسس علم النفس الاجتماعى والعلامة « والتر باجهوت «W.Bagehot» الذى درس أثر قوى النفس والطبيعة فى شئون السياسة وذلك فى كتابه : «Physics and Politics» .

٣ – المدرسة الجغرافية :

وهى التى اهتمت بدراسة أثر العوامل الجغرافية والعوامل البيئية على الفرد والمجتمع . وخير من يمثلها العلماء : ريدكوان «Reid Cowan» ، وجيمس فرجريف «Farigrieve» وماكيندر «Mackinder» واهتم بعض أنصار هذه المدرسة بدراسة الوحدات الإقليمية

دراسة جغرافية اجتماعيـــة . ومن هؤلاء : هبرتسون «Hebertson» وفاركارسون «Farquharson» ، وهربرت فلور «H. Fleur»

٤ــ مدرسة الوراثة وشئون النسل :

وهي مدرسة تابعة لهربرت سبنسر بيد أن أنصارها تخصصوا فى دراسة قوانين الوراثة البيولوجية وأثرها فى الوراثة الاجتماعية ، ومبلغ تطبيق هذه القوانين على المجتمع . وأقوى دعائم هذه المدرسة « فرانسيس جالتون » وتلميذه كارل بيرسون «F.Galton,K.Pearson» وقد اهتم التلميذ بدراسة شئون التناسل ووسائل تحسينه ، وقام بإحصائيات واسعة النطاق وعرض المشكلات الاجتماعية المتصلة بهذا الموضوع . وتعرف نظرياته « بالأوجينية Eugenics» وهذه الدراسات وثيقة الصلة بالدراسات السكانية التى حمل لواءها كارسواندر ووليم بفردج Carrsaunders ; W. Beveridge وترجع فى أصولها البعيدة إلى « مالتس » .

٥ ــ مدرسة الاقتصاد السياسى وأتباعها :

وهى المدرسة التى أسسها « سدنى وب S. Webb » . عام ١٨٩٥ . وانضم إليها كثير من أعضاء الجمعية الفابية . والحق أن إنجلترا أنتجت ما لم ينتجه بلد آخر من المفكرين الذين تخصصوا فى الدراسات الاقتصادية وتعمقوا فى مختلف ميادينها وربطوا بينها وبين مختلف مظاهر الحياة الاجتماعية وأشهر هؤلاء هوبسن «Hobson» وسدنى وب وزوجته بتريس«Sidney Beatrice Webod» وباراها موند «B. Hammond» وبيجو «Pigou» وهنرى كلاى «H.Clay» وكول H. Cole .

وتخصص بعض أنصار هذه المدرسة فى الدراسات السياسية وأشهرهم : ميتلاند وفجيس ولاسكى «Maitland; Figgis Lasky» ومنهم من تخصص فى الدراســات التاريخية والتاريخ الاجتماعى وتطور الثقافة والنظم الإنسانية وأشهرهم : توينبى وبولارد وميرس ومارفن «Toynbee; Polard; Myres; Maravin»[1] .

ومن الذين أرخوا للنظم الاجتماعية كذلك : « جوش وجم ومورلى وفولر وسدنى وبتريس وب Geoch, Gomme, Morley Fuller, Sidney Beatrice Webb

ويمكننا أن نضيف إلى ما تقدم بعض أعلام المفكرين الذين أثروا فى الفكر الاجتماعى

(1) Barnes : An Imrtord to the Hist of Sociology. p. 60 Sqq.

المعاصر وأشهرهم أصحاب الأفلاطونية الحديثة : « جرين وبوزانكية وبرادلى : Green, «Bozanquet; Bradley» ثم بعض الفلاسفة المعاصرين أمثال شلر ، وبرنارد رسل ، وهوبهد ، وولز ، وبرنارد شو «Shiller; Russeil; Whitehesd; Wells; B. Shaw» [1]

وتخصص بعض المفكرين فى دراسة العلاقات الدولية ومشكلات العالم والصعوبات التى تهدد التكتلات الدولية وأبرز من كتب فى هذا الميدان مترانى وزمرن ، وهوبسن ، وولف ، وبرنز [2] . «Mitrany; flimmern; Hobson; J. Bryce; Woolf; Burns»

٩ — مدرسة الاجتماع الحربى «Sociology of War» :

لا يمكننا ونحن بصدد الحديث عن علم الاجتماع فى إنجلترا أن نغفل البحوث التى يقوم بها العلامة « رمنى «Jay Rumney» فهو من علماء الاجتماع البعيدين عن الدعاية والظهور . يمتاز . بإنتاجه الخصب وبحثه الدقيق ولا سيما فى « سسيولوجيا الحرب » أى دراسة الحرب باعتباره ظاهرة اجتماعية . فقد أدرك أن الحرب لاتقوم اتفاقاً أو مصادفة ولكنها ترجع إلى قوى كامنة فى طبيعة الحياة الاجتماعية والسياسية وأن هناك أموراً تخرج هذه القوى إلى الفعل . فدرس المؤثرات النفسية المهيئة لقيام الحروب وعرض للمشاكل والصعوبات الاجتماعية التى تنشأ أثناء الحروب وبعدها ومدى ما يصيب المجتمعات غالبة ومغلوبة من تفكك وانحلال خلقى واجتماعى . وعرض كذلك للمشكلات الاقتصادية ودرس اقتصاديات الحرب والتحول إلى الإنتاج الحربى ثم الرجوع بعد الحرب إلى الإنتاج المدنى وأثر كل هذه التحولات فى القيم الفكرية والأخلاقية . وقدم « رامنى » فى كل هذه النواحى بحوثا ممتعة مزودة بإحصائيات وحقائق مستمدة من تاريخ الحربين العالميتين الأخيرتين . هذا ، وينبغى الإشارة إلى أن علم الاجتماع الحربى قد تقدم أخيراً فى إنجلترا وأمريكا وروسيا . وتستمد معظم الدراسات الحربية دعائمها مما ذكره دارون وسبنسر وأتباعهما أمثال جمبلوفتش وراتزنهوفر ونفيكوف وفاكارو بصدد دراسة الأصول الحيوية للكيان الاجتماعى وتنازع البقاء والانتخاب الطبيعى والبقاء للأصلح . فقد طبقوا هذه المبادئ على دراسة ظاهرة الحرب وزادوا على ذلك أن قوة الدفاع لا تتوقف فحسب على إعداد الجيوش من النواحى المادية والفنية والاستراتيجية ، بل يجب على القائمين بشئون الدفاع الاهتمام

(1) , (2) Gurvitch; Moore; Twentieth Century Soc. p. 574.

بالمسائل الاجتماعية ودراسة نفسية الجيوش فلا يقتصرون على ما تقدمه لهم العلوم الطبيعية من خدمات لاستغلال الطاقة المادية بل ينبغي العناية كذلك بما تقدمه العلوم الإنسانية وخاصة الاجتماعية من معلومات تفيد شئون الحرب .

٧ – مدرسة « هوبهوس Hobhouse» :

احتل « هوبهوس » (١٨٦٤ – ١٩٢٩) فى الفكر الإنجليزى المكانة التى كان يحتلها هربرت سبنسر : فهو خليفته غير مدافع ، وهو الفيلسوف الذى أنتجته إنجلترا بعد هربرت سبنسر ليحمل مشعل الدراسات الفلسفية والاجتماعية التى سبق أن حملها ذلك الفيلسوف العظيم . شغل « هوبهوس » كرسى الاجتماع فى جامعة لندن من عام ١٩٠٧ إلى عام ١٩٢٩ . وترك إنتاجا زاخراً بشتى النظريات الفلسفية والاجتماعية والأخلاقية والسياسية ضمنها مؤلفاته التى أشهرها :

The Metaphysical Theory of the State.
The rational Good.
Elements of Social Justice.
Social development; Its nature and Conditions.
Social Evolution and Political Theory.
Democracy and Reaction.
Development and Purpose.
Liberalism — Moral in Evolution.

هذا فضلا عن المقالات القيمة التى نشرها فى صحيفة « Sociological Review » وكان (هوبهوس) موضع التقدير من معاصريه ومعاونيه . فقد ذكر تلميذه « جنزبرج » فى المقال الذى كتبه عن أستاذه فى دائرة معارف العلوم الاجتماعية « أن عمله كان عظيماً ورائعاً ، وهو من أوائل رواد علم النفس المقارن ، وساهم مساهمة فعالة فى وضع أسس الدراسات الاجتماعية العلمية ، وقد وضعته دراساته وبحوثه فى الفلسفة والأخلاق والاجتماع فى الصف الأول من مفكرى العالم » .

استأثرت نظرية التطور بمزيد عناية (هوبهوس) بل تعتبر هذه النظرية هى قطب الرحى من فلسفته الاجتماعية والتطور فى نظره هو أساس كل العلوم الحديثة وهو حجر الزاوية من النظام الاجتماعى الحديث الذى يعتبره مظهراً من التطور العام والمجتمع

فى نظره وحدة عضوية Organicunit خاضعة لعملية التطور . وكانت هذه العملية تسير سيراً آلياً تلقائيا فى المجتمعات البدائية كما هو الشأن بصدد تطور الحياة الحيوانية . بيد أن التطور ، بعد أن انتقل بالمجتمعات الإنسانية إلى مرحلة أكثر ارتقاء ، أصبح خاضعاً للعقل والشعور بالذات « Consciousnes and Self- Consciousness » بمعنى أن التطور فى المجتمعات البدائية كان محدوداً بالعوامل الطبيعية والميكانيكية . وكانت هذه المجتمعات خاضعة لقوانين تنازع البقاء والبقاء للأصلح والانتخاب الطبيعى ثم تطورت حياتها الاجتماعية إلى أن أصبح العقل هو القوة الموجهة للتطور والمسيطرة على ظروف الحياة .

وكان ارتقاء ملكات العقل وقدراته رد فعل لما افتقده الإنسان فى تطوره البيولوجى ، أى أنه عوض الإنسان عما أصابه من ضعف جسمى وفيزيقى .

وفى هذا الصدد يقول : إن أهم خصائص هذا العصر أن الحضارة لأول مرة لها اليد الطولى ، وأن الظروف والاعتبارات الطبيعية أصبحت خاضعة لسيطرة الإنسان وسيطرة العقل الجمعى ، وأن المؤسسات إنما تقوم بوحى من النظام الاجتماعى مما يجعلنا نسلم بأن ثمة تقدم اجتماعى مستمر[1] .

ولما كان نمو العقل الإنسانى وقوة ضبطه «Conscious Control» وسيطرته على ظروف الحياة هو المبدأ الأساسى فى عملية التطور ، فلابد من البحث عن منهج علمى لقياس هذا النمو . ويرى « هوبهوس » أن « قانون الاطراد » «Correlation» هو المنهج الذى بفضله يستطيع العقل أن يربط بين الحالات العقلية البدائية والحالات العقلية الراقية وبفضله يمكن قياس درجات النمو التى قطعها البنيان الاجتماعى فى تقدمه وارتقائه[2] .

ولما كان العقل والشعور هو الذى يحد التطور فى المرحلة الارتقائية فلابد إذن أن ينطوى هذا التطور على عملية غائية تستهدف فى نهاية تحليلها تحقيق الانسجام التام والتناسق الكلى فى الحياة الاجتماعية «Social Harmony» .

ومتى تحققت حالة التناسب هذه فى المجتمع ، وصل إلى ما اصطلح على تسميته « بالخير العقلى «Rational Good» وهى أقصى مراحل التقدم الاجتماعى حيث تتحدد

(1) Social Evolution and Political theory p. 163.

(2) Barnes; An Introduction to the Hist, of Soc. 617.

حقوق وواجبات الأفراد وتسود العدالة وتتحقق الديمقراطية بمفاهيمها العريضة فالتقدم الاجتماعى «Social Progress» هو نهاية المطاف من عملية التطور الاجتماعى وهو فى آخر تحليله ينطوى على زيادة تكيف الأفراد بالنسبة للمجتمع . وتناسق الأشكال المختلفة للتنظيم الاجتماعى بالنسبة لبعضها البعض ، وتناسق المجتمع ككل بالنسبة للبيئة المحيطة به . وفى ضوء هذه الاعتبارات يمكن اعتباره تقدماً مستمراً لمبادئ الوحدة والنظام والتعاون والانسجام والتناسق بين الكائنات البشرية[1] . والمجتمع المثالى الذى يتجه إليه هذا التقدم هو المجتمع الذى تتحقق فيه حالات التناسق المشار إليها ولا يمكن أن نعزو هذا التقدم إلى عوامل آلية أوتوماتيكية ولكنه خاضع للعقل والذكاء والإرادة . ولذلك يقرر (هوبهوس) أنه من الممكن اتخاذ نمو العقل الجمعى ومبلغ سيطرته على ظروف الحياة مقياساً لهذا التقدم[2] .

وهذا ما حدا به أن يجعل التقدم الاجتماعى هو الموضوع الأساسى لعلم الاجتماع . ويفرق (هوبهوس) بين التقدم الاجتماعى والتطور الاجتماعى . فيقصد بالتقدم النمو المطرد الارتقائى فى الحياة الاجتماعية بفضل نمو القدرات العقلية . أما التطور فينطوى على معنيين : فقد يكون تقدماً إلى الأمام «Advance» ، وقد يكون تراجعاً «Retrogression» أى نكوصاً إلى الخلف . والتقدم الاجتماعى فى نظره لا يعتمد كما سبق الإشارة على العوامل الآلية والبيولوجية وإنما هو نتيجة للعوامل النفسية والقوى العقلية والشعورية والدوافع الاجتماعية فهو من طبيعة ثقافية «Cultural Item» .

وفى هذا الصدد يقول «Progress is not Racial; but Social» .

وبجانب هذا التحليل العميق لمبادئ الحياة الاجتماعية ، درس هوبهوس الناحية السياسية وأولاها مزيداً من العناية . فدرس الأشكال السياسية : الملكية المطلقة والملكية الإقطاعية والإمبراطورية . ودرس الديمقراطية والعدالة والمساواة وفكرة المواطن . وكشف عن الدعائم الأساسية التى ترتكز عليها الأشكال السياسية وتطور هذه الدعائم . وقرر فى هذا الصدد أن الأشكال السياسية فى تطورها خضعت لثلاثة مبادئ :

---

(1), Hobhouse; Social Evolution p. 127 (3 — p. 101).

(2) Hobhouse; Social Evolution and Political Theory p. 39.

١ – القرابة «Kinship» وهى الرابطة التى كانت مسيطرة فى المجتمعات البدائية والأشكال الاجتماعية التى ظهرت فى فجر الحياة الاجتماعية .

٢ – القوة والسلطة «Authority» وهى دعامة المجتمعات المطلقة القديمة حيث كان الدين وقوة السيادة الشخصية هما العاملان المسيطران على النظام السياسى .

٣ – المواطنة وبمعنى أدق « الرعوية أو الصفة المدنية «Citizenship» وترتكز هذه المرحلة على قوتين : المسئولية الفردية فيما يتعلق بالحقوق والواجبات المدنية ، والمسئولية الحكومية المعبرة عن إرادة مجموع الأفراد وهى التى تتبلور فى القانون والإدارة . وفى هذا الشكل لا يمكن التعبير عن العلاقة بين الحكومة والمحكومين بالقوة والتسلط والإلزام كما هو الشأن فى المرحلة الثانية ، ولكن يمكن قياسها بمبلغ الرضاء المتبادل بين الطرفين ومبلغ تنفيذ كل منهما لتعهداته والتزاماته التى لا تستهدف إلا الخير المشترك والمصلحة الجماعية والحكومة فى هذا الشكل ليست هى منبع السلطة ومصدر التشريع والقانون ، ولكنها مجرد مفوض أو وكيل عن الشعب لإدارة شئونه . والقانون فى هذا الشكل لم يكن هو مجموعة الأوامر والنواهى الصادرة عن إرادة السيد الدكتاتور ، ولكنه التعبير الواضح عن إرادة الأفراد والمترجم عن رغباتهم ومصطلحاتهم فى الحياة الاجتماعية . ويعبر الأفراد عن إرادتهم هذه بواسطة الهيئات الانتخابية . وحقوق المواطنين فى هذا الشكل لاتقل شأناً عن واجباتهم ، وهى عبارة عن ضمانات تحفظ مصالح الأفراد قبل الحكومة كما تحفظ مصالحهم المتبادلة بنسب متكافئة . فهى إذن مقياس الخير المشترك وهى دعامة أساسية مميزة للدولة الحديثة القائمة على مبدأ « المواطنة أو الرعوية » والخاضعة « للسيادة غير الشخصية[1] .

(1) Hobhuose; Moral in Evolution; p. 60 Sqq.

(2) Gurvitch; Moore; Twentieth century Sociology p. 580.

٨ – مدرسة جنزبرج Ginsberg :

يعتبر « جنزبرج » من علماء الإنجليز البارزين فى ميدان الدراسات الاجتماعية . شغل كرسى الاجتماع بمدرسة الاقتصاد السياسى فى جامعة لندن منذ وفاة أستاذه « هو بهوس » . تابع دراسات أستاذه ، ونشر مؤلفات وبحوثاً كثيرة ، وألقى طائفة من المحاضرات العلمية القيمة قام « معهد علم الاجتماع بنشرها . وأهم تراثه العلمى ما يأتى :

The Simpler peoples (with Hobhouse; Wheeler).
Dialogues on Metaphysics.
The Psychology of Society (1921).
On the place of Sociology (Conf 1935).
The Scope of Sociology (Soc. Review 1927).
The Inter change between Social Classes.
The Claims of Eugenics.
The Inheritance of Mental Characteristics.
Causality in the Social Sciences.
Concept of Evolution in Sociology.
Sociology (1934).

وقد أعيد نشر هذه المقالات فى كتاب عنوانه : Studies in Sociology (1932)

وتحتوى البحوث المشار إليها على دراسات تحليلية مركزة فى كثير من موضوعات علم الاجتماع . ويعتبر كتابه « نفسية المجتمع » أغناها بالموضوعات التى عرضها على بساط البحث وهو يعتبر فى جملته مقدمة لعلم النفس الاجتماعى درس فيه الغرائز وحللها وحلل طبيعة الإرادة والعقل وناقش نظرية العقل الجمعى وعالج موضوع العادات والعرف والتقاليد ومقومات التراث الاجتماعى والرأى العام والنماذج الاجتماعية مثل المجتمعات المحلية والهيئات والمؤسسات . ودرس خصائص ومقومات الوحدة العنصرية والقومية والتزم فى هذه الدراسات الخطوط الرئيسية لفلسفة أستاذه « هوبهوس » .

وفى بحثه عن « منزلة علم الاجتماع » نادى بضرورة تطبيق المنهج المقارن فى الدراسات الاجتماعية . فإن اتساع نطاق استقراء الحقائق وجمعها وتحليلها ومقارنتها فى أدوار تاريخية مسلسلة أمر ضرورى لتحديد الوظيفة التى تؤديها العوامل الاقتصادية والسياسية والثقافية

فى تاريخ الحضارة . والوقوف على مبلغ تطور هذه الوظيفة واختلافها باختلاف المجتمعات وباختلاف العصور [١] » .

وفى مقاله عن « ميدان علم الاجتماع وموضوعه » ضغط على الاعتبارات الآتية :

١ – يجب أن يحدد الباحث فى هذا العلم طبيعة وخواص النماذج المختلفة للأنماط أو الجماعات والنظم التى تنطوى عليها ويجب عليه أن يتتبع مراحل تطورها ونموها فى مختلف العصور وباختلاف الشعوب .

٢ – يجب على الباحث . بفضل استخدام المنهج المقارن وبفضل الاستعانة بالمقاييس الكمية ما وسعه ذلك . أن يحدد العلاقات المتبادلة بين النظم والظواهر الاجتماعية وبين درجة نموها ويقف على مبلغ انتشارها .

٣ – وعلى الباحث أن يصل إلى قوانين عامة معبرة عن مثل هذا النمو . أى يجب عليه الوصول إلى طائفة من القوانين الاجتماعية التى تسير وفقاً لها ظواهر المجتمع ونظمه .

٤ – ويجب على الباحث أن يشرح هذه القوانين ويحللها ويترجم لها فى ضوء قوانين الحياة والعقل الأكثر عمومية . ويبدو فى هذه النقطة مبلغ تأثره بعلمى النفس والبيولوجيا .

ويعتبر بحثه فى « العلاقات المتبادلة بين الطبقات » أول بحث فى إنجلترا يتناول موضوعات « الحراك الاجتماعى أو المرونة الاجتماعية «Social Mobility» والتنظيم والتدرج الطبقى والمراكز والأوضاع والرتب الاجتماعية » .

هذا فضلا عن البحوث القيمة التى تتناول اليوجينية « تحسين النسل » والنواحى العقلية فى الحياة الاجتماعية ، والتطور الاجتماعى ، ومقومات الثقافة والتراث الاجتماعى وعناصره « اللغة والدين والعلم وما إليها » مما لا يتسع المقام لتفصيله .

---

(1) Gurvitch : Moore; Twentieth Century Sociology P. 580.